دمعة وابتسامة

تأليف

جبران خليل جبران

يطلب من

مكتبة الهلال

بشارع الفجالة بمصر

مطبعة رعمسيس ، ٤١ بالظاهر بمصر

دمعة وابتسامة

الى

M. E. H.

أقدم هذا الكتاب، وهو أول نسمة من عاصفة حياتي

الى الروح النبيلة التي تحب النسمات وتسير مع العواصف

جبران



جبران خليل جبران

مقدمة

قد انتقل جبران خليل جبران فى الأعوام العشرة الأخيرة من ربيع الحياة الى صيفها ، فنمت أمياله ونضجت أفكاره ، وتدرجت روحه من عالم الخيال الشعرى إلى عالم أسمى وأوسع يتعانق فيه الخيال المطلق والحقيقة المجردة ، وتلتقى فى جنباته أشباح العواطف الدقيقة بجبابرة المبادىء الأساسية الصحيحة .

جبران اليوم ليس بجبران الأمس ؛ فالشاب الحساس الذى كتب « دمعة وابتسامة » بقلم محبر بالدمع قد تحول الى رجل قوى يكتب برؤوس الحراب المغموسة بالدماء . والفرق بين مقالة « جمال الموت » وحكاية « حفار القبور » هو الفرق بين جبران الأمس وجبران اليوم ، فالنفس اللطيفة التى كانت ترتعش لهبوب نسيمات السحر قد تشددت بالعزم فلم تعد تهتز إلا للعواصف ، فالعواصف هى من حاضر جبران بمقام النسيم من ماضيه

ولكن لو تمعنا ملياً بمجموع كتابات جبران وتآليفه ، وعلاقتها بالنهضة الأدبية الحديثة، لوجدنا أن « لدمعة وابتسامة» مقاماً خاصاً بها لانها كانت أول نغمة من نوعها فى العالم العربي،

مقدمة

قد انتقل جبران خليل جبران فى الأعوام العشرة الأخيرة من ربيع الحياة الى صيفها ، فنمت أمياله ونضجت أفكاره ، وتدرجت روحه من عالم الخيال الشعرى إلى عالم أسمى وأوسع يتعانق فيه الخيال المطلق والحقيقة المجردة ، وتلتقى فى جنباته أشباح العواطف الدقيقة بجبابرة المبادىء الأساسية الصحيحة ٠

جبران اليوم ليس بجبران الأمس ؛ فالشاب الحساس الذى كتب « دمعة وابتسامة » بقلم محبر بالدمع قد تحول الى رجل قوى يكتب برؤوس الحراب المغموسة بالدماء . والفرق بين مقالة « جمال الموت » وحكاية « حفار القبور » هو الفرق بين جبران الأمس وجبران اليوم ، فالنفس اللطيفة التى كانت ترتعش لهبوب نسيمات السحر قد تشددت بالعزم فلم تعد تهتز إلا للعواصف ، فالعواصف هى من حاضر جبران بمقام النسيم من ماضيه

ولكن لو تمعنا ملياً بمجموع كتابات جبران وتآليفه ، وعلاقتها بالنهضة الأدبية الحديثة، لوجدنا أن « لدمعة وابتسامة» مقاماً خاصاً بها لانها كانت أول نغمة من نوعها فى العالم العربي،

فقد خالفت بما فيها من التراكيب ودقة البيان كل ما جاء قبلها من الكتابات ، لانها أتت كتوطئة لحركة عربية جديدة يشعر بها و يتأثر لها الطالب فى مدرسته والمتأدب فى مكتبته والصحافى فى إدارته ·

عند ما ظهرت « دمعة وابتسامة » كان الكتاب والشعراء فى مصر وسوريا والمهجر يملأون الصحف والمجلات بمقالات ورسائل وقصائد عقيمة بليدة خالية من الشعور بعيدة عن القلب ، وكان أكثر الناس يحسبون كل من وزن الكلام شاعراً وكل من رتب الفقرات كاتباً · ولكن لما ابتدأ جبران بنشر « دمعة وابتسامة » غير الناس أفكارهم وعلموا للمرة الأولى أن الشاعر الحقيقى هو الذى يضرب بأصابعه السحرية على أوتار قلوبهم و يعيد على مسامعهم فى اليقظة ما تسمعه أرواحهم فى المنام . ومن ذلك الحين ابتدأ فتيان الكتاب والشعراء بتقليد « دمعة وابتسامة » والنسج على منوالها فلم يمر عامان أو ثلاثة على ظهورها حتى كان لجبران تلاميذ وأتباع منتشرون فى كل مكان من العالم العربى

عند ما طلبنا إلى جبران جمع « دمعة وابتسامة » ونشرها فى كتاب أجابنا ببيت من أحد موشحاته قائلا :

« ذاك عهد من حياتى قد مضى بين تشبيب وشكوى ونواح »

فقلنا له « ذاك عهد من حياتك قد مضى ، ولكنه لم يزل حاضراً فى حياة محبيك ومريديك »

فاجابنا « أن الشاب الذى كتب « دمعة وابتسامة » قد مات ودفن فى وادى الأحلام فلماذا تريدون نبش قبره ؟ »

فقلنا له « أن ذلك الشاب قد ترنم بأغنية علوية قبل أن يموت وعلينا أن نحفظ تلك الأغنية كيلا تتلاعب بها أيدى الضياع »

فاجابنا « افعلوا ما شئتم ، ولكن لا تنسوا أن روح ذلك الشاب قد تقمصت فى جسد رجل يحب العزم والقوة محبته للظرف والجمال و يميل الى الهدم ميله إلى البناء فهو صديق الناس وعدوهم فى وقت واحد »

فقلنا له « سوف لا ننسى وان حاولنا التناسى ففى « حفار القبور » ما ينبهنا ويذكرنا »

نسيب عريضه

نيويورك فى ٢٤ نيسان « افريل » سنة ١٩١٤

دمعة وابتسامة

توطئة

* * *

أنا لا أبدل أحزان قلبي بأفراح الناس ولا أرضى أن تنقلب الدموع التي تستدرها الكآبة من جوارحي وتصير ضحكا . أتمنى أن تبقى حياتي دمعة وابتسامة . دمعة تطهر قلبي وتفهمني أسرار الحياة وغوامضها ، وابتسامة تدنيني من أبناء بجدتي وتكون رمز تمجيدي الآلهة — دمعة أشارك بها منسحقي القلب وابتسامة تكون عنوان فرحي بوجودي .

أريد أن أموت شوقاً ولا أحيا مللا . أريد أن تكون في أعماق نفسي مجاعة للحب والجمال لأني نظرت فرأيت المستكفئين أشقى الناس وأقربهم من المادة ، وأصغيت فسمعت تنهدات المشتاق المتمني أعذب من رنات المثاني والمثالث .

يأتي المساء فتضم الزهرة أوراقها وتنام معانقة شوقها وعند ما يأتي الصباح تفتح شفتيها لاقتبال قبلة الشمس ، فحياة الازهار شوق ووصال — دمعة وابتسامة .

تتبخر مياه البحر وتتصاعد ثم تجتمع وتصير غيمة وتسير فوق الطلول والأودية حتى إذا ما لاقت نسمات لطيفة تساقطت باكية نحو الحقول وانضمت الى الجداول ورجعت الى البحر موطنها. حياة الغيوم فراق ولقاء — دمع وابتسامة.

كذا النفس تنفصل عن الروح العام وتسير في عالم المادة وتمر كغيمة فوق جبال الأحزان وسهول الافراح فتلتقي بنسمات الموت فترجع الى حيث كانت : الى بحر المحبة والجمال . الى الله . . .

حياة الحب

— الربيع —

هلمى يامحبوبتى نمشى بين الطلول ، فقد ذابت الثلوج ، وهبت الحياة من مراقدها وتمايلت فى الاودية والمنحدرات . سيرى معى لنتتبع آثار أقدام الربيع فى الحقل البعيد . تعالى لنصعد الى أعالى الربى ونتأمل فى تموجات اخضرار السهول حولها .

ها قد نشر فجر الربيع ثوباً طواه ليل الشتاء فاكتست به أشجار الخوخ والتفاح فظهرت كالعرائس فى ليلة القدر ، واستيقظت الكروم وتعانقت قضبانها كمعاشر العشاق ، وجرت الجداول راقصة بين الصخور مرددة أغنية الفرح ، وانبثقت الازهار من قلب الطبيعة انبثاق الزبد من البحر ،

تعالى لنشرب بقايا دموع المطر من كؤوس النرجس ونملأ نفسينا بأغانى العصافير المسرورة ونغتنم استنشاق عطر النسمات .

لنجلس بقرب تلك الصخرة حيث يختبىء البنفسج ونتبادل قبلات المحبة .

ـ الصيف ـ

هيا بنا الى الحقل ياحبيبتى فقد جاءت أيام الحصاد وبلغ الزرع مبلغه وأنضجته حرارة محبة الشمس للطبيعة . تعالى قبل أن تسبقنا الطيور فتستغل أتعابنا . وجماعة النمل فتأخذ أرضنا. هلمى نجن ثمار الارض مثلما جنت النفس حبوب السعادة من بذور الوفاء التى زرعتها المحبة فى أعماق قلبينا . ونملأ المخازن من نتاج العناصر كما ملأت الحياة أهراء عواطفنا .

هلمى يارفيقتى نفترش الاعشاب ونلتحف السماء ونوسد رأسينا بضغث من القش الناعم فنرتاح من عمل النهار ونسمع مسامرة غدير الوادى .

ـ الخريف ـ

لنذهب الى الكرمة يا محبوبتى ونعصر العنب ونوعيه فى الاجران مثلما توعى النفس حكمة الأجيال ونجمع الأثمار اليابسة ونستقطر الازهار ونستعيض عن العين بالاثر .

لنرجع نحو المساكن فقد اصفرت أوراق الأشجار

ونثرها الهواء كأنه يريد أن يكفن بها أزهاراً قضت لوعة عند ما ودعها الصيف . تعالى فقد رحلت الطيور نحو الساحـــل وحملت معها أنس الرياض وخلفت الوحشة للياسمين والسيسبان فبكى باقى الدموع على أديم التراب

لنرجع ! فالجـــداول قد وقفت عن مسيرها ، والعيون نشفت دموع فرحهـا ، والطلول خلعت باهى أثوابها . تعـالى يامحبوبتى ، فالطبيعة قد راودها النعـاس فامست تودع اليقظة بأغنية نهاوندية مؤثرة .

— الشتاء —

إقتربي ياشريكة حيــاتى ، إقتربي منى ولا تدعى أنفاس الثلوج تفصل جسمينا . اجلسى بجانبى أمام هذا الموقد ، فالنار فاكهة الشتاء الشهية . حدثينى بمآتى الأجيال ؛ فآذانى قد تعبت من تاوه الارياح وندب العنـاصر . أوصدى الأبواب والنوافذ ، فمرأى وجه الجو الغضوب يحزن نفسى والنظر الى المدينـة الجالسة كالثكلى تحت أطباق الثلوج يدمي قلبى . . . أسقى السراج زيتاً ، يارفيقة عمرى ، فقد أوشك أن ينطفىء ، وضعيه بالقرب منك لأرى ما كتبته الليالى على وجهك . . . ايتى بجرة الخمر لنشرب ونذكر أيامالعصر

إقتربى ! — إقتربى منى ياحبيبة نفسى فقد خمدت النـار

وكاد الرماد يخفيها . . . ضميني فقد انطفأ السراج وتغلبت عليه الظلمة . . . هاقد أثقلت أعيننا خمرة السنين . . . ارمقيني بعين كحلها النعاس . . . عانقيني قبل أن يعانقنا الكرى . . . قبليني فالثلج قد تغلب على كل شيء الا قبلتك . . . آه ياحبيبتى ماأعمق بحر النوم . آه ماأبعد الصباح . . . فى هذا العالم

حكاية

* * *

على ضفة ذلك النهر ، فى ظل أشجار الجوز والصفصاف جلس ابن زرّاع يتأمل فى المياه الجارية بسكينة وهدوء . فتى ربى بين الحقول حيث يتكلم كل شيء عن الحب . حيث الاغصان تتعانق ، والازهار تمايل ، والطيور تتشبب . حيث الطبيعة بأسرها تكرز بالروح . ابن عشرين رأى بالامس على الينبوع صبية جالسة بين الصبايا فأحبها ، ثم علم انها ابنة الامير فلام قلبه وشكى نفسه الى نفسه ، لكن الملامة لا تميل بالقلب عن الحب ، والعذل لايصرف النفس عن الحقيقة ، والإنسان بين قلبه ونفسه كغصن لين فى مهب ريح الجنوب وريح الشمال

نظر الفتى فرأى زهرة البنفسج قد نبتت بقرب زهرة

الاقحوان ، ثم سمع الهزار يناجي الشحرور فبكى لوحدته وانفراده ، ثم مرت ساعات حبه أمام عينيه مرور الاشباح فقال وعواطفه تسيل مع كلماته ودموعه :

— « هوذا الحب يستهزىء بى . هاقد جعلنى سخرية وقادنى الى حيث الآمال تعد عيوباً والأمانى — مذلة . الحب الذى عبدته قد رفع قلبى الى قصر الامير وخفض منزلتى الى كوخ الزارع وسار بنفسى الى جمال حورية تحيط بها الرجال ويحميها الشرف الرفيع ... أنا طائع أيها الحب فما ذا تريد ؟ قداتبعتك على سبل نارية فلذعنى اللهيب . قد فتحت عينى فلم أرَ غير الظلمة ، وأطلقت لسانى فلم أتكلم بغير الأسى . قد عانقنى الشوق أيها الحب بمجاعة روحية لن تزول بغير قبل الحبيب . أنا ضعيف أيها الحب فلمَ تخاصمنى وأنت القوى ؟ لماذا تظلمنى وأنت العادل وأنا البرىء ؟ لماذا تذلنى ولم يكن غيرك ناصرى ؟ لماذا تتخلى عنى وأنت موجدى ؟ ان جرى دمى بغير مشيئتك فأهرقه ، وان تحركت قدماى على غير طرقك فشلها — افعل مشيئتك بهذا الجسد وخل نفسى تفرح بهذه الحقول المستأمنة بظل جناحيك ... الجداول تسير الى حبيبها البحر ، والازهار تبتسم لعشيقها النور ، والغيوم تهبط نحو مريدها الوادى . وأنا وبي ما لا تعرفه الجداول ولا تسمع به الازهار ولا تدركه الغيوم قد رأيتنى وحيداً فى محنتى منفرداً فى غرامى بعيداً عن

التى لاتريدنى جنـدياً فى كتائب أبيهـا ولا ترضاني خادماً فى قصرها »

وسكت الفتى هنيهة كأنه يريد أن يتعـلم الكلام من خرير النهر وحفيف أوراق الغصون ثم عاد فقال :

ـــ « وأنت يامن أخاف من اسمها أن أدعوها باسمها ، أيتهـا المحجوبة عنى بستائر العظمة وجدران الجلال ، أيتها الحورية التى لا أطمع بلقـائها إلا فى الأبدية حيث المساواة ، يامن تطيعها الصوارم وتنحنى أمامها الرقاب وتنفتح لها الخزائن والمساجـد ! قد ملـكتِ قلباً قدسه الحب واسـتعبدتِ نفساً شرفها الله وخلبتِ عقلا كان بالأمس حراً بحرية هذه الحقول فصار اليوم أسيراً بقيود هـــذا الغرام . رأيتكِ أيتها الجميـلة فعرفت سبب مجيئى إلى هذا العالم ، ولمـا عرفت رفعة منزلتك ونظرت إلى حقارتى علمت أن للآلهة أسراراً لا يعرفهـا الانسان وسـبلا تذهب بالأرواح إلى حيث المحبة تقضى بغير الشرائع البشرية . أيقنت لما نظرت إلى عينيك أن هـذه الحياة فردوس بابه القلب البشرى، ولما رأيت شرفك وذلى يتصارعان صراع مارد ورئبال علمت أن هـذه الارض لم تعد وطناً لى . ظننت لما وجدتك جالسة بين نسائك ، كالوردة بين الرياحين، أن عروس أحلامى قد تجسدت وصارت بشراً مثلي، ولما تخبرت

مجد أبيك وجدت أن دون اجتناء الورد أشوا كا تدمي الأصابع، وأن ما تجمعه الأحلام تفرقه اليقظة ... »

وقام إذ ذاك ومشى نحو الينبوع منخفض الجناح، كسير القلب، مجسما الأسى والقنوط بهذه الكلمات:

— « تعال ياموت وانقذني، فالارض التي تخنق أشواكها أزهارها لا تصلح للسكن. تلم وخاصني من أيام تخلع الحب عن كرسي مجده وتقيم الشرف العالمي مكانه. خلصني ياموت! فالأبدية أجدر بلقاء المحبين من هذا العالم. هناك ياموت انتظر حبيبتي وهناك أجتمع بها »

بلغ الينبوع وقد جاء المساء وأخذت الشمس تلم وشاحها الذهبي عن الحقل فجلس يذرف الدموع على حضيض وطئته أقدام ابنة الأمير وقد حنى رأسه على صدره كأنه يمنع قلبه عن الخروج

في تلك الدقيقة ظهرت من وراء أشجار الصفصاف صبية تجر أذيالها على الأعشاب ووقفت بجانب الفتى ووضعت يدها الحريرية على رأسه، فنظر اليها نظرة نائم أيقظه شعاع الشمس. فرأى إبنة الأمير واقفة حذاءه فجثا على ركبتيه مثلما فعل موسى عند ما رأى العليقة مشتعلة أمامه، ولما أراد الكلام أرتج عليه فنابت عيناه الطافحتان بالدمع عن لسانه.

ثم عانقته الصبية وقبلت شفتيه ، وقبلت عينيه راشفة المدامع السخينة وقالت بصوت ألطف من نغمة الناي :

— « قد رأيتك ياحبيبي فى أحلامى ونظرت وجهك فى وحدتى وانقطاعى فأنت رفيق نفسى الذى فقدته ونصفى الجميل الذى انفصلت عنه عند ما حكم علي بالمجيء الى هذا العالم . قد جئت سراً ياحبيبي لالتقى بك وها أنت الآن بين ذراعى ، فلا تجزع ! قد تركت مجد والدى لاتبعك الى أقاصى الارض وأشرب معك كأس الحياة والموت . قم ياحبيبي فنذهب الى البرية البعيدة عن الانسان »

ومشى الحبيبان بين الاشجار تخفيهما ستائر الليل ولا يخيفهما بطش الامير ولا أشباح الظلمة

هناك فى أطراف البلاد عثر رواد الامير على هيكلين بشريين فى عنق أحدهما قلادة ذهبية وبقربهما حجر كتبت عليه هذه الكلمات

« قد جمعنا الحب فمن يفرقنا ، وأخذنا الموت فمن يرجعنا ؟ »

في مدينة الاموات

* * *

تملصت بالامس من غوغاء المدينة وخرجت أمشي في الحقول الساكنة حتى بلغت أكمة عالية ألبستها الطبيعة أجمل حلاها . فوقفت وقد بانت المدينة بكل ما فيها من البنايات الشاهقة والقصور الفخمة تحت غيمة كثيفة من دخان المعامل .

جلست أتأمل عن بعد في أعمال الانسان فوجدت أكثرها عناء ، فحاولت في قلبي ألا أفتكر بما صنعه ابن آدم ، وحولت عيني نحو الحقل كرسي مجد الله فرأيت في وسطه مقبرة ظهرت فيها الاجداث الرخامية المحاطة بأشجار السرو

هناك بين مدينة الاحياء ومدينة الاموات جلست أفكر — أفكر في كيفية العراك المستمر والحركة الدائمة في هذه ، وفي السكينة السائدة والهدوء المستقر في تلك . من الجهة الواحدة آمال وقنوط ، ومحبة وبغضة ، وغنى وفقر ، واعتقاد وجحود ، ومن الاخرى تراب في تراب تقلب

الطبيعة بطنه ظاهراً وتبدع منه نباتاً ثم حيواناً وكل ذلك يتم في سكينة الليل

بينا انا مستسلم لعوامل هذه التأملات استلفت ناظرى جمع غفير يسير الهوينا تتقدمه الموسيقى وتملأ الجو ألحاناً محزنة. موكب جمع بين الفخامة والعظمة وآلف بين أشكال النـاس. جنازة غنى قوى. رفات ميت تتبعها الأحياء وهم يبكون ويولولون ويبثون بالهواء الصراخ والعويل

بلغوا الجبانة فاجتمع الكهان يصلون ويبخرون وانفرد الموسيقيون ينفخون الأبواق وبعد قليل انبرى الخطباء فأبنوا الراحل بمنتقيات الكلام، ثم الشعراء فرثوه بمنتخبات المعانى، وكل ذلك كان يتم بتطويل ممل. وبعد قليل انقشع الجمع عن جدث تسابق فى صنعه الحفارون والمهندسون وحوله أكاليل الأزهار المنمقة بأيدى المتفننين

رجع الموكب نحو المدينة وأنا أنظر من بعيد وأفتكر، ومالت الشمس نحو الغروب واستطالت خيالات الصخور والأشجار وأخذت الطبيعة تخلع أثواب النور

فى تلك الدقيقة نظرت فرأيت رجلين يقلان تابوتاً خشبياً ووراءهما امرأة ترتدى أطماراً بالية وهى حاملة على منكبيها طفلا رضيعاً وبجانبها كلب ينظر اليها تارة والى التابوت أخرى — جنازة فقير حقير وراءها زوجة تذرف دموع

الأسى ، وطفل يبكى لبكاء أمه وكلب أمين يسير وفى مسيره حزن وكآبة

وصل هؤلاء الى المقبرة وأودعوا التابوت حفرة فى زاوية بعيدة عن الاجداث الرخامية ، ثم رجعوا بسكينة مؤثة والكلب يتلفت نحو محط رحال رفيقه حتى اختفوا عن بصرى وراء الاشجار

فالتفت إذ ذاك نحو مدينة الأحياء وقلت فى نفسى : — تلك للأغنياء الأقوياء . ثم نحو مدينة الأموات وقلت : — هذه للاغنياء الاقوياء . فأين موطن الفقير الضعيف يارب ؟

قلت هذا ونظرت نحو الغيوم المتلبدة المتلونة أطرافها بذهب من أشعة الشمس الجميلة . وسمعت صوتاً من داخلى يقول ... هناك .



موت الشاعر حياته

***

خيم الليل بجنحه فوق المدينـــة وألبسها الثلج ثوباً وهزم البرد ابن آدم من الأسواق فاختبأ فى أوكاره. وقامت الأرياح تتأوه بين المسا كن كمؤبن وقف بين القبور الرخاميـة يرثى فريسة الموت

وكان فى أطراف الأحياء بيت حقير تداعت أركانه وأثقلته الثلوج حتى أوشك أن يسقط ، وفى إحدى زوايا ذلك البيت فراش بال عليـه محتضر ينظر الى سراج ضعيف يغالب الظلمة فتغلبه . فتى فى ربيع العمر قد علم بقرب أجل انعتاقه من قيود الحياة فصـار ينتظر المنية وعلى وجهه المصفر نور الامل وعلى شفتيه ابتسامة محزنة . شاعر جاء ليفرح قلب الانســان بأقواله الجميلة يموت جوعاً فى مدينـة الاحياء الاغنياء . نفس شريفـة هبطت مع نعم الآلهة لتجعل الحياة عـذبة تودع دنيانا قبل أن تبتسم لها الانسـانية . منازع يلفظ أنفاسـه الاخيرة

وليس بقربه سوى سراج كان رفيق وحدته وأوراق عليها خيالات روحه اللطيفة

جمع ذلك الفتى المنازع بقايا قوة قاربت الفناء ورفع يديه نحو العلاء وحرك أجفانه الذابلة كأنه يريد أن يخرق بنظراته الاخيرة سقف ذلك الكوخ البالى ليرى النجوم من وراء الغيوم ثم قال :

« تعالى أيتها المنية الجميلة فقد اشتاقتك نفسي. اقتربى وحلي قيود المادة فقد تعبت من جرها . تعالى إلى ياأيتها المنية الحلوة وانقذيني من بين البشر الذين يحسبوني غريباً عنهم لانى أترجم ما أسمعه من الملائكة الى لغة البشر . اسرعى نحوى فقد تخلى عنى الانسان وطرحنى فى زوايا النسيان لانى لم أكن طامعاً بالمال نظيره ولا باستخدام من هو أضعف مني . تعالى إلى أيتها المنية العذبة وخذيني فأولاد بجدتى لا يحتاجوني . ضميني إلى صدرك المملوء محبة . قبلي شفتي التى لم تذق طعم قبلة الوالدة ولا لمست وجنة الاخت ولا لثمت ثغر المحبوبة. اسرعى وعانقيني ياحبيبتي المنية

انتصب إذ ذاك بجانب فراش المنازع طيف امرأة ذات جمال غير بشرى ترتدى ثوباً ناصعاً كالثلج وتحمل بيدها

أكليل زنابق من نبت الحقول العلوية . ثم دنت منه وعانقته وأغمضت عينيه كي يراها بعين نفسه . وقبلت شفتيه قبلة محبة — قبلة تركت على شفتيه ابتسامة اكتفاء .

في تلك الدقيقة أصبح ذلك البيت خالياً الا من التراب وبعض أوراق منثورة في زوايا الظلمة

مرت الاجيال وسكان تلك المدينة غرقى في سبات الجحود والاهمال ، ولما استفاقوا ورأت عيونهم فجر المعرفة أقاموا لذلك الشاعر تمثالا عظيما في وسط الساحة العمومية وعيدوا له في كل عام عيداً ... آه ما أجهل الانسان !

بنات البحر

* * *

في أعماق البحر الذى يحيط بالجزائر القريبة من مطلع الشمس — هنالك فى الاعماق حيث الدر الكثير جثة فتى هامدة بقربها بنات البحر ذوات الشعور الذهبية قد جلسن بين نبات المرجان ينظرن اليها بعيونهن الزرقاء الجميلة و يتحدثن بأصوات موسيقية . حديثاً سمعته اللجة فحملته الامواج الى الشواطىء فجاء به النسيم الى نفسى .

قالت واحدة : — «هذا بشرى هبط بالامس اذ كان البحر حانقاً »

فقالت الثانية : — « لم يكن البحر حانقاً ولكن الانسان — وهو الذى يدعى بأنه من سلالة الآلهة — كان فى حرب حامية أهرقت فيها الدماء حتى صار لون الماء قرمزياً وهذا البشرى هو قتيل الحرب . »

فقالت الثالثة : — « لا أدرى ما هى الحرب ولكنى أعلم أن الانسان بعد أن تغلب على اليابسة طمع بالسيادة على

البحر فابتدع الآلات الغريبة ومخر العباب فدرى نبتون إله البحار وغضب من هــــذا التعدى فلم ير الانسان بداً اذ ذاك من ارضاء مليكنا بالذبائح والهدايا . فالأشلاء التى رأيناها بالأمس هابطة هى آخر تقدمة من الانســان الى نبتون العظيم »

قالت الرابعة : — « ما أعظم نبتون ولـكن ما أقسى قلبــه . لو كنت أنا سلطانة البحار لما رضيت بالذبائح الدموية . تعالى لنرى جثة هذا الشاب فربما أفادتنا شيئاً عن طائفة البشر »

اقتربت بنات البحر من جثمان الشاب وبحثن فى جيوب أثوابه فعثرن على رسالة فى الثوب الملاصق قلبه فأخذت الرسالة واحدة منهن وقرأت :

ياحبيبي ! — ها قد انتصف الليـل وأنا ساهرة وليس لى مسـل غير دموعى ولا معز سـوى أملي برجوعك إلى من بين مخالب الحرب ، ولا أقدر أن أتذكر إلاّ بما قلته لى عند الوداع بأن عند كل انسان أمانة من الدمع لا بد من ردها يوماً . . . لاأدرى ياحبيبي ماذا أكتب بل أترك نفسى تسيل على الورق . نفس يعذبها الشقاء ويعزيهــا الحب الذى يجعل الالم لذة والاحزان مسرة . لما وحد الحب قلبينا وصرنا نتوقع ضم جسمين تجول فيهما روح واحدة نادتك الحرب فاتبعتهــا

مدفوعاً بعوامل الواجب والوطنية . ما هذا الواجب الذى يفرق المحبين ويرمل النساء و ييتم الاطفال ؛ ما هذه الوطنية التى من أجل أسباب صغيرة تدعو الحرب لتخريب البلاد ؟ ما هذا الواجب المحتوم على القروى المسكين والذى لا يحفل به القوى وابن الشرف الموروث ؟ اذا كان الواجب ينفى السلم من بين الامم ، والوطنية تزعج سكينة حياة الانسان، فسلام على الواجب والوطنية .... لا لا ياحبيبى ، لا تحفل بكلامى بل كن شجاعاً ومحباً لوطنك ولا تسمع كلام ابنة أعماها الحب وأضاع بصيرتها الفراق ... ، اذا كان الحب لا يرجعك إلى فى هذه الحياة فالحب يضمنى اليك فى الحياة الآتية »

وضعت بنات البحر تلك الرسالة تحت أثواب الشاب وسبحن بسكينة محزنة ولما بعدن قالت واحدة منهن : —

« ان قلب الانسان أقسى من قلب نبتون »



النفس

***

. . . وفصل إله الآلهة عن ذاته نفساً وابتدع فيها جمالاً

وأعطاها رقة نسمات السحر وعطر ازاهر الحقل ولطف نور القمر

ووهبها كأس سرور وقال : — لن تشربى منها الا اذا نسيت الماضى ، وأهملت الآتى ، وكأس حزن وقال : — تشربين منها فتدركين كنه فرح الحياة

وبث فيها محبة تفارقها مع أول تنهدة استكفاء ، وحلاوة تخرج منها مع اول كلمة ترفع

وأسقط عليها علماً من السماء ليرشدها الى سبل الحق

ووضع فى أعماقها بصيرة ترى ما لا يرى

وابتدع فيها عاطفة تسيل مع الخيالات وتسير مع الاشباح

وألبسها ثوب شوق حاكته الملائكة من تموجات قوس القزح

ثم وضع فيها ظلمة الحيرة وهى خيال النور

وأخذ الاله ناراً من مصهر الغضب ، وريحاً تهب من صحراء الجهل ، ورملاً من على شاطىء بحر الانانية ، وتراباً من تحت أقدام الدهور وجبل الانسان

وأعطاه قوة عمياء تثور عند الجنون وتخمد أمام الشهوات

ثم وضع فيه الحياة وهى خيال الموت

وابتسم إله الآلهة وبكى وشعر بمحبة لاحد لها ولا مدى وجمع بين الانسان ونفسه



ابتسامة ودمعة

* * *

لمت التسمس اذيالها عن تلك الحدائق الناضرة وطلع القمر من وراء الافق وسكب عليها نوراً لطيفا ، وأنا جالس هنالك تحت الاشجار أتأمل فى انقــــلاب الجو من حالة الى حالة ، وأنظر من خلال الاغصان الى النجوم المنثورة كالدراهم على بساط ازرق وأسمع من بعيد خرير جداول الوادى

ولما أستأمنت الطيور بين القضبــــان المورقة وأغمضت الازهار عيونها وسادت السكينة سمعت وقع أقدام خفيفة على الاعشاب فحولت نظرى واذا فتى وفتاة يقتربان منى ثم جلسا تحت شجرة غضه وأنا أراهما ولا أرى،

وبعيد أن تلفت الفتى الى كل ناحية سمعته يقول : —

« اجلسى بجانبى ياحبيبتى واسمعيني . ابتسمى لان ابتسامتك هى رمز مستقبلنا وافرحى لان الايام قد فرحت من أجلنا . حدثتنى نفسى بالشك الذى يخامر قلبك والشك فى الحب إثم ياحبيبتى . عن قريب تصيرين سيدة هذه الاملاك الواسعة التى ينيرها ذلك القمر الفضى ، وربة هذا القصر المضاهى قصور الملوك ، تجرك خيولى المطهمة فى المتنزهات وتذهب بك مركباتى الجميــــلة الى

المراقص والملاهي . ابتسمي ياحبيبتي كما يبتسم الذهب في خزائني . وارمقني كما ترمقني جواهر والدي . اسمعي ياحبيبتي فقد أبى قلبي ألا يسكب أمامك مخبآته . أمامنا سنة العسل . سنة نصرفها مع الذهب الكثير على شواطىء بحيرات سويسرا وفي متنزهات إيطاليا وقرب قصور النيل وتحت أغصان أرز لبنان . سوف تلتقين بالامرات والسيدات فيحسدنك على حلاك وملابسك كل ذلك لك مني . فهلا رضيت . آه ما أحلى ابتسامك . ابتسامك يحاكي ابتسام دهري »

وبعد قليل رأيتهما يمشيان على مهل ويدوسان الازهار بأقدامهما كما تدوس قدم الغني قلب الفقير

غابا عن بصري وأنا أفكر بمنزلة المال عند الحب . أفكر بالمال مصدر شرور الانسان وبالحب منبع السعادة والنور

ظللت تائهاً في مسارح هذه الافكار حتى لمحت شبحين مرا من امامي وجلسا على الاعشاب . فتى وفتاة أتيا من جهة الحقول حيث اكواخ الفلاحين في المزارع . وبعد هنيهة من سكينه مؤثرة سمعت هذا الكلام صادراً مع تنهدات عميقه من فم مصدور . — « كفكفي الدمع يا حبيبتي ان المحبه التي شاءت ففتحت أعيننا وجعلتنا من عبادها تهبنا نعمة الصبر والتجلد . كفكفي الدمع وتعزى لاننا تحالفنا على دين الحب ، ومن أجل الحب العذب نحتمل عذاب الفقر

ومرارة الشقاء وتباريح الفراق ، ولا بد لى من مصـــارعة الايام حتى اظفر بغنيمة تليق بان أضعها بين يديك تساعدنا على قطع مراحل العمر . ان المحبة يا حبيبتى — وهى الله — تقتبل منا هذه التهدات وهذه الدموع كبخور عاطر وهى تكافئنا عليها بقدر ما نستحق ، اودعك ياحبيبتى فأنا راحل قبل أن يغيب القمر »

ثم سمعت صوتاً رقيقاً تقاطعه زفرات انفاس متلهبة . صوت عذراء لطيفة أودعته كل ما فى جوارحها من حرارة الحب ومرارة التفرق وحلاوة التجلد تقول : « الوداع ياحبيبى »

ثم افترقا وأنا جالس تحت أغصان تلك الشجرة تتجاذبنى ايدى الشفقة وتتساهمنى اسرار هذا الكون الغريب

ونظرت تلك الساعة نحو الطبيعة الراقدة وتأملت ملياً فوجدت فيها شيئاً لاحد له ولا نهاية . شيئاً لا يشترى بالمال . وجدت شيئاً لا تمحوه دموع الخريف ولا يميته حزن الشتاء . شيئا لاتوجده بحيرات سويسرا ولامتنزهات ايطاليا . وجدت شيئا يتجلد فيحيا فى الربيع ويثمر فى الصيف . وجدت فيها — المحبة

رؤيا

* * *

هنـاك فى وسط الحقل على ضفة جـدول بلورى رأيت قفصاً حبكت ضلوعـه يد ساهرة . و فى إحـدى زوايا القفص عصفور ميت وفى زاوية أخرى جرن جف ماؤه وجرن نفدت بذوره

فوقفت وقد امتلكتنى السكينـه وأصغيت صاغراً كأن فى الطائر الميت وصوت الجدول عظة تستنطق الضمير و تستفسر القلب . وتأملت فعلمت أن ذلك العصفور الحقير قد صارع الموت عطشاً وهو بجانب مجارى الميـاه وغالبـه جوعاً وهو فى وسط الحقول التى هى مهـد الحياة كغنى أقفلت عليـه أبواب خزائنه فمات جوعاً بين الذهب

وبعـد هنيهة رأيت القفص قد انقلب فجأة وصار هيـكل انسان شفافاً وتحول الطائر الميت الى قلب بشرى فيـــه جرح عميق يقطر دمـاً قرمزياً وقد حاكت جوانب الجرح شفتى امرأة حزينة

ثم سمعت صوتاً خارجاً من الجرح مع قطرات الدماء قائلا : — « أنا هو القلب البشرى أسير المادة وقتيل شرائع الانسان الترابي . فى وسط حقل الجمال ،على ضفة ينابيع الحياة أسرت فى قفص الشرائع التى سنها الانسان للشواعر . على مهد محاسن المخلوقات بين أيدى المحبة مت مهملا لان ثمار تلك المحاسن ونتاج هذه المحبة قد حرما علي . كل ما يشوقنى صار بعرف الانسان عاراً وجميع ما اشتهيه أصبح فى قضائه مذلة.

أنا القلب البشرى قد حبست فى ظلمة سنن الجامعة فضعفت ، وقيدت بسلاسل الأوهام فاحتضرت ، وأهملت فى زوايا غى المدنية فقضيت ولسان الانسانية منعقد وعيونها ناشفة وهى تبتسم »

سمعت هذه الكلمات ورأيتها خارجة مع قطرات الدم من ذلك القلب الجريح و بعد ذلك لم أعد أرى شيئاً ولم أسمع صوتاً فرجعت لحقيقتى



الجمال

« ان الجمال دين الحكماء »

شاعر هندى

يا أيها الذين حاروا فى سبيل الاديان المتشعبة وهاموا فى أودية الاعتقادات المتباينة فرأوا حرية الجحود أوفى من قيود التسليم ، ومسارح النكران أسلم من معاقل الاتباع اتخذوا الجمال ديناً واتقوه رباً فهو الظاهر فى كمال المخلوقات البادى فى نتائج المعقولات . أنبذوا الألى مثلوا التدين لهواً وآلفوا بين طمعهم بالمال وشغفهم بحسن المآل وآمنوا بألوهية جمال كان بدء استحسانكم الحياة ومنبع محبتكم السعادة ، ثم توبوا اليه فهو المقرب قلوبكم من عرش المرأة مرآة شعائركم ، والمدرب أنفسكم فى مجال الطبيعة موطن حياتكم

ويا أيها الذين ضاعوا فى ليل التقولات وغرقوا فى لجج الاوهام ان فى الجمال حقيقة نافية الريب ، مانعة الشك ، ونوراً باهراً يقيكم ظلمة البطل . تأملوا فى يقظة الربيع ومجىء الصبح — ان الجمال نصيب المتأملين

اصغوا لانغام الطيور ، وحفيف الاغصان ، وخرير الجدول — ان الجمال قسمة السامعين . انظروا وداعة الطفل ، وظرف الشاب ، وقوة الكهل ، وحكمة الشيخ — ان الجمال فتنة الناظرين

تشببوا بنرجس العيون ، وورد الخدود ، وشقيق الفم — أن الجمال يتمجد بالمتشببين . سبحوا اغصن القد ، وليل الشعر ، وعاج العنق — ان الجمال يسر بالمسبحين . كرسوا الجسد هيكلا للحسن وقدسوا القلب مذبحاً للحب — ان الجمال يجازى المتعبدين

تهللوا يا أيها الذين أنزلت عليهم آيات الجمال وافرحوا اذ لاخوف عليكم ولا أنتم تحزنون



الحروف النارية

احفروا على لوح قبري:
« هنا رفات من كتب اسمه بماء »

جان كيتس

أهكذ تمر بنا الليالى ؟ أهكذا تندثر تحت أقدام الدهر ؟ أهكذ تطوينا الأجيال ولا تحفظ لنا سوى اسم تخطه على صحفها بماء بدلا من المداد ؟

أينطفىء هذا النور وتزول هذه المحبة وتضمحل هذه الأماني ؟

أيهدم الموت كل ما نبنيه ويذرى الهوآء كل ما نقوله ويخفى الظل كل ما نفعله ؟

أهذه هى الحياة ؟ هل هى ماض قد زال واختفت آثاره ، وحاضر يركض لاحقاً بالماضي ، ومستقبل لا معنى له إلا اذا ما مر وصار حاضراً أو ماضياً ؟

أتزول جميع مسرات قلوبنا وأحزان أنفسنا بدون أن نعلم نتائجها ؟

أهكذا يكون الانسان مثل زبد البحر يطفو دقيقة على وجه الماء ثم تمر نسيمات الهواء فتطفئه ويصبح كأنه لم يكن ؟

لا لعمرى فحقيقة الحياة حياة. حياة لم يكن ابتداؤها فى الرحم ولن يكون منتهاها فى اللحد. وما هذه السنوات إلا لحظة من حياة أزلية أبدية. هذا العمر الدنيوى مع كل ما فيه هو حلم بجانب اليقظة التى ندعوها الموت المخيف، حلم ولكن كل ما رأيناه وفعلناه فيه يبقى ببقاء الله

فالاثير يحمل كل ابتسامة وكل تنهدة تصعد من قلوبنا ويحفظ صدى كل قبلة مصدرها المحبة. والملائكة تحصى كل دمعة يقطرها الحزن من ما قينا وتعيده على مسمع الأرواح السابحة فى فضاء اللانهاية كل أنشودة ابتدعها الفرح من شواعرنا.

هناك فى العالم الآتي سنرى جميع تموجات شواعرنا واهتزازات قلوبنا، وهناك ندرك كنه ألوهيتنا التى نحتقرها الآن مدفوعين بعوامل القنوط

الضلال الذى ندعوه اليوم ضعفاً سيظهر فى الغد كحلقة كيانها واجب لتكملة سلسلة حياة ابن آدم

الأتعاب لا نكافأ عليها الآن ستحيا معنا وتذيع مجدنا، الارزاء التى نحتملها ستكون أكليلا لفخرنا

هذا ولو علم «كيتس» ذلك البابل الصداح ان أناشيده لم تزل تبث روح محبة الجمال فى قلوب البشر لقال: «احفروا على لوح قبرى — هنا بقايا من كتب اسمه على اديم السماء باحرف من نار»

بين الخرائب

***

وشح القمر تلك الخمائل المحاطة بمدينة الشمس برقعا لطيفا، وظفر الهدو بأعنة الكائنات ، وبانت تلك الخرائب الهائلة كأنها جبار يهزأ بعاديات الليالى

فى تلك الساعة انبثق من لاشىء خيالان يشبهان أبخرة متصاعدة من بحيرة زرقاء وجلسا على عمود رخامى استأصله الدهر من ذلك البناء الغريب يتأملان بمحيط يحاكى مسارح السحر . وبعد هنيهة رفع أحدهما رأسه وبصوت يشبه الصدى الذى تردده خلايا الاودية البعيدة قال : — « هذه بقايا هياكل بنيتها من أجلك يامحبوبتى . وتلك رمم قصر رفعته لاستحسانك وقد دكت ولم يبق منها سوى أثر يحدث الامم بمجد صرفت الحياة لتعميمه وعز استخدمت الضعفاء لتعظيمه — تأملي يامحبوبتى فقد تغلبت العناصر على مدينة شيدتها واستصغرت الأجيال حكمة رأيتها، وأضاع النسيان ملكا رفعته ولم يبق لى سوى دقائق المحبة التى أولدها جمالك ونتائج الجمال الذى أحياه حبك . بنيت هيكلا فى أورشليم للعبادة فقدسه الكهان ثم سحقته الايام »

وبنيت هيكلا بين أضلعي للمحبة فقدسه الله ولن تقوى عليه القوات، صرفت العمر مستفسراً ظواهر الاشياء مستنطقاً أعمال المادة فقال الإنسان « ما أحكمه ملكا » وقالت الملائكة « ما أصغره حكيما » ثم رأيتك يا محبوبتي وغنيت فيك نشيد محبة وشوق ففرحت الملائكة أما الانسان فلم ينتبه . . . . كانت أيام ملكي كالحواجز بين نفسي الظمآنة والروح الجميل المستقر في الكائنات ، ولما رأيتك استيقظت المحبة وهدمت تلك الحواجز فأسفت على عمر صرفته مستسلما لتيارات القنوط حاسباً كل شيء تحت الشمس باطلا . حبكت الدروع وطرقت التروس ، فخافتني القبائل ولما أنارتني المحبة احتقرت حتى من شعبي، ولكن عند مجيء الموت أودع تلك الدروع والتروس والتراب وحمل محبتي الى الله »

وبعد سكينة قال الخيال الثاني ! — «مثلما تكتسب الزهرة عطرها وحياتها من التراب كذلك تستخلص النفس من ضعف المادة وخطاءها قوة وحكمة »

عندئذ تمازج الخيالان وصارا خيالا واحداً وسارا . وبعد هنيهة أذاع الهواء هذه الكلمات في تلك الانحاء : « لا تحفظ الأبدية الا المحبة لأنها مثلها » . . .

رؤيا

ارفع هذه الرسالة الى الفيكونتس (س . ل .)
جواباً على رسالة أكرمتني بها

مشى الشباب أمامي فاتبعت مسيره حتى اذا بلغنا حقلا بعيداً وقف متاملا الغيوم الجارية فوق خط الشفق كأنها قطيع نعاج بيضاء ، والاشجار المشيرة بأغصانها العارية الى العلاء كأنها تطلب من السماء استرجاع أوراقها النضرة . فقلت أين نحن أيها الشباب. قال : — في حقول الحيرة فانتبه . قلت : — لنرجع! لان وحشة المكان تخيفني ومرأى الغيوم والاشجار العارية يحزن نفسي . قال : — اصبر فالحيرة بدء المعرفة . ثم نظرت فاذا بحورية تقترب منا كالخيال فصرخت مستغربا : — من هذه ؟ قال : — هي ميلبوسين ابنة جوبتير وربة الروايات المحزنة (١)

(١) كان للفنون عند قدماء اليونان تسع معبودات «ميوز» وكانت كل منهن توحي الى مريدها بحسب محبته لها وأهليته لعطاياها وهذه أسماؤهن «ميلبومين» ربة الروايات المحزنة . « بوليمنيا » ربة الشعر والغناء «ثاليا» ربة الشعر الهزلي . «كاليوب» ربة الفصاحة والشعر الحماسي. « اراتو » ربة الموشحات والغزل . « ترسكوري »ربة الرقص. «اورانيا» ربة علم الفلك . «كليو » ربة التاريخ . « اوتربي» ربة فن الموسيقى

قلت : — وماذا تبتغى الاحزان منى وأنت بجانبى أيها الشاب المفرح ؟ قال : — جاءت لتريك الارض وأحزانها ومن لا يرى الاحزان لا يرى الفرح

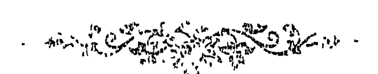
ووضعت الحورية يدها على عينى ولما رفعتها رأيتنى منفصلا عن شبابى مجرداً من ثوب المادة فقلت : — أين الشباب يا ابنة الآلهة ؟ فلم تجبنى بل ضمتنى بجناحيها وطارت بى الى قمة جبل عال فرأيت الارض وما فيها منبسطة أمامى كالصفحة وأسرار سكانها ظاهرة لعينى كالخطوط فوقفت متهيبا بجانب الحورية متأملا خفايا الانسان مستفسراً رموز الحياة . رأيت وليتنى لم أرَ . رأيت ملائكة السعادة تحارب أبالسة الشقاء والانسان بينهما فى حيرة يميل به نحو الآمال تارة والقنوط أخرى. رأيت الحب والبغض يلعبان بالقلب البشرى : هذا يستر ذنوبه ويسكره بخمرة الاستسلام ويطلق لسانه بالمدح والاطراء ، وذاك يهيج خصوماته ويعميه عن الحقيقة ويغلق سامعته عن القول الصحيح ، رأيت المدينة جالسة كابنة الازقة متشبثة بأذيال ابن آدم . ثم رأيت البرية الجميلة واقفة عن بعد تبكى من أجله

رأيت الكهان يرغون كالثعالب. والمسحاء الكذبة يحتالون على ميول النفس ، والانسان يصرخ مستنجداً بالحكمة وهى نافرة عنه غضبى عليه لانه لم يسمعها عند ما نادته فى الشوارع

على رؤوس الاشهاد . رأيت القسوس يكثرون رفع عيونهم الى السماء وقلوبهم مطمورة فى قبور المطامع . رأيت الفتيان يتحببون بألسنتهم و يقتربون بآمال نزقهم . وألوهيتهم بعيدة وعواطفهم نائمة . رأيت المتشرعين يتاجرون بثرثرة الكلام بسوق الخداع والرياء . والاطباء يلعبون بارواح البسطاء الواثقين . رأيت الجاهل يجالس العاقل فيرفع ماضيه على عرش المجد ويوسد حاضره بساط السعة ويمد لمستقبله فراش الفخامة رأيت الفقراء والمساكين يزرعون والاغنياء الاقوياء يحصدون ويأكلون والظلم واقف هناك والناس يدعونه الشريعة . رأيت لصوص الظلمة يسرقون كنوز العقل وحراس النور غرقى فى كرى التوانى . رأيت المرأة كالقيثارة فى يد رجل لا يحسن الضرب عليها فتسمعه أنغاماً لا ترضيه . رأيت تلك الكتائب المعروفة تحاصر مدينة الشرف الموروث . لكنى رأيت كتائب قد انحدرت لانها قليلة غير متحدة . رأيت الحرية الحقيقية تسير وحدها فى الشوارع وأمام الابواب تطلب مأوى والقوم يمنعونها . ثم رأيت الابتذال يسير بموكب عظيم والناس يدعونه الحرية، رأيت الدين مدفونا طى الكتاب والوهم قائماً مقامه . رأيت الانسان يلبس الصبر ثوب الجبانة ويعطى التجلد لقب التوانى . ويدعو اللطف باسم الخوف . رأيت المتطفل على موائد الاداب يدعى والمدعو اليه صامتا . رأيت المال بين أيدى المبذر شبكة

شروره وبين أيدى البخيل مجلبة لمقت الناس. وبين أيدى الحكيم لم أرَ مالا

عند ما رأيت كل هذه الاشياء صرخت متألما من هذا المنظر: — « أهذه هى الارض ياابنة الآلهة؟ أهذا هو الانسان؟ فأجابت بسكينة جارحة : — « هذه طريق النفس المفروشة شوكا وقطربا . هذا ظل الانسان . هذا هو الليل وسيجىء الصباح » ثم وضعت يدها على عينى ولما رفعتها وجدتنى وشبابى سائراً على مهل ، والأمل يركض أمامى



الامس واليوم

***

مشى الموسر فى حديقة صرحه ومشى الهم متبعاً خطواته وحام القلق فوق رأسه ، مثلما تحوم النسور على جثة صفعها الموت، حتى بلغ بحيرة تسابقت فى صنعها أيدى الانسان وجمعت جوانبها منطقة من الرخام المنحوت . فجلس هناك ينظر آناً الى المياه المتدفقة من أفواه التماثيل تدفق الافكار من مخيلة العاشق؛ وآونة الى قصره الجميل الجالس على تلك الرابية جلوس الخال على وجنة الفتاة

جلس فجالسته الذكرى ونشرت أمام عينيه صفحات كتبها الماضى فى رواية حياته فاخذ يتلوها والدموع تحجب عنه محيطاً صنعه الانسان واللهفه تعيد الى قلبه رسوم أيام نسجتها الالهة حتى أبت لوعته إلا الكلام فقال :

« كنت بالأمس أرعى الغنم بين تلك الروابى المخضرة وافرح بالحياة وأنفخ فى شبابتى معلناً غبطتي . وها أنا اليوم أسير المطامع يقودنى المال إلى المال ، والمال إلى الانهماك ،

والانهماك إلى الشقاء. كنت كالعصفور مغرداً، وكالفراش متنقلا، ولم يكن النسيم أخف وطأة على رؤوس الاعشاب من خطوات أقدامى فى تلك الحقول، وها أنا الآن سجين عادات الاجتماع: أتصنع بملابسى وعلى مائدتى وبكل أعمالى من أجل ارضاء البشر وشرائعهم. كنت أود لو إني خلقت لأتمتع بمسرات الوجود ولكننى أرانى اليوم متبعا بحكم المال سبل الغم، فصرت كالناقة المثقلة بحمل من الذهب والذهب يميتها. أين السهول الواسعة؟ أين السواقى المترنمة؟ أين الهواء النقى؟ أين مجد الطبيعة؟ أين ألوهيتى؟ قد ضيعت كل ذلك ولم يبق لى غير ذهب أحبه فيستهزىء بي، وعبيد اكثرتهم فقل سرورى، وصرح رفعته ليهدم غبطتى. كنت وابنة البدو نسير، والعفاف ثالثنا، والحب نديمنا، والقمر رقيبنا، واليوم أصبحت بين النرانى بتشين ممدودات الأعناق، غامزات العيون، الشاريات الحسن بالسلاسل والمناطق، البائعات الوصل بالاساور والخواتم. كنت والفتيان نخطر بين الأشجار كسرب الغزلان، نشترك بإنشاد الأغانى، نقتسم ملذات الحقول، واليوم صرت بين القوم كالنعجة بين الكواسر، أمشى فى الشوارع فتنفتح علي عيون البغض ويشار الى بأصابع الحسد. وان ذهبت إلى المتنزهات لا أرى غير وجوه كالحة ورؤوس شامخة. بالأمس أعطيت الحياة وجمال الطبيعة، واليوم سلبتهما، بالأمس كنت

غنياً بسعادتى . واليوم أصبحت فقيراً بمالى ، وبالأمس كنت ونعاجى مثل ملك رؤوف ورعية ، واليوم صرت لدى الذهب كالعبد المتصاغر أمام السيد المظلوم ... ما كنت أحسب أن المال يطمس عين نفسى ويقودها إلى مغائر الجهل ولم أدر أن ما يحسبه الناس مجداً كان واحر قلباه جحيما .... »

وقام الموسر من مكانه ومشى ببطء نحو قصره متـــأوهاً مردداً : « أهذا هو المال ؟ أهـذا الاله الذى صرت كاهنـه ؟ أهذا ما نبتاع بالحياة ولا يمكننـا ان نستبدل به ذرة من الحياة ؟ من يبيعنى فكراً جميلا بقنطار من الذهب ؟ من يأخـذ قبضة من الجواهر بدقيقة محبـــة ؟ من يعطينى عيناً ترى الجمال ويأخذ خزائنى؟ »

ولمـا وصل الى باب القصر نظر نحو المدينة نظرة أرميـا إلى أورشليم واومأ بيده نحوها كأنه يرثيها وقال بصوت عال : « أيها الشعب السالك فى الظلمة ، الجالس فى ظـــل الموت ، الراكض وراء التعـاسة ، القاضى بالبطل ، المتكلم بالحماقة ، إلى متى تأكل الشوك والحسك وترمى الثمار والزهر إلى الهاوية ؟ حتى متى تسكن الوعر والخرائب تاركا بستان الحياة ؟ لماذا ترتدى الاطمار البالية وثوب الدمقس قد فصل من أجلك ؟ أيها الشعب قد انطفأ سراج الحكمة فاسقه زيتاً . وخرب ابن

السبيل كرم السعادة فاحرسه . وسرق اللص خزائن راحتك فانتبه ! »

في تلك الدقيقة وقف أمام الغنى فقير ومد يده متسولا ، فنظر اليه وقد انضمت شفتاه المرتجفتان وانبسطت سحنته المنقبضة وانبعث من عينيه نور لطيف . كان الأمس الذى رثاه بقرب البحيرة قد مر مسلماً فاقترب من المستعطى وقبله قبلة المحبة والمساواة وملأ يده ذهباً وقال والرأفة تسيل من كلماته :« خذ يا أخي الآن وعد غداً مع اترابك واسترجعوا أموالكم » فابتسم الفقير ابتسامة الزهرة الذابلة بعيد المطر وراح مسرعاً

حينئذ دخل الموسر إلى قصره قائلا : كل شيء حسن في الحياة حتى المال لانه يعلم الانسان أمثولة . إنما المال كالارغن يسمع من لا يحسن الضرب عليه أنغاماً لا ترضيه . المال كالحب يميت من يضن به ويحيي واهبه .



رحماك يانفس رحماك

* * *

حتى م تنوحين يا نفسى وأنت عالمة بضعفى ؟ الى متى تضجين وليس لدى سوى كلام بشرى أصور به أحلامك ؟

انظرى يانفسى . فقد أنفقت عمرى مصغياً لتعاليمك . تأملي يامعذبتى ، لقد أتلفت جسمى متبعاً خطواتك

كان قلبى مليكى ، فصار الآن عبدك ، وكان صبرى مؤنسى ، فغــدا بك عذولى ، كان الشباب نديمى فأصبح اليوم لائمى . وهـذا كل ما أوتيته من الالهة ، فبم تستزيدين وبمَ تطمعين؟

قد أنكرت ذاتى وتركت ملاذ حياتى وغادرت مجد عمرى ولم يبق لى سواك ، فاقضى علي بالعدل، فالعدل مجدك أواستدعى الموت واعتقى من الاسر معناك

رحماك يانفس فقد حملتنى من الحب ما لا أطيقه : أنت والحب قوة متحدة ، وأنا والمادة ضعف متفرق ، وهل يطول عراك بين قوى وضعيف ؟

رحماك يانفس فقد أريتني السعادة عن بعد شاسع أنت والسعادة على جبل عال ، وأنا والشقاء فى أعماق الوادى ، وهل يتم لقاء بين علو ووطؤة ؟

رحماك يانفس ، فقد أبنت لى الجمال وأخفيته : أنت والجمال فى النور ، وأنا والجهل فى ظلمة ، وهل يمتزج النور بالظلمة ؟

أنت يانفس تفرحين بالآخرة قبل مجيء الآخرة ، وهذا الجسد يشقى بالحياة وهو فى الحياة

أنت تسيرين نحو الأبدية مسرعة ، وهذا الجسد يخطو نحو الفناء ببطء ، فلا أنت تتمهلين ولا هو يسرع ؛ وهذا يانفس منتهى التعاسة

أنت ترتفعين نحو العلو بجاذب السماء ، وهذا الجسد يسقط الى تحت بجاذبية الارض ، فلا أنت تعزينه ولا هو يهنئك وهذه هى البغضاء

أنت يانفس غنية بحكمتك ، وهذا الجسد فقير بسليقته ، فلا أنت تتساهلين ولا هو يتبع ، وهذا أقصى الشقاء

أنت تذهبين فى سكينة الليل نحو الحبيب وتتمتعين منه بضمة وعناق ، وهذا الجسد يبقى أبداً قتيل الشوق والتفريق

رحماك يانفس رحماك

الارملة وابنها

* * *

هجم الليل مسرعاً على شمالى لبنان مستظهراً على نهار تساقطت فيه الثلوج على تلك القرى المحيطة بوادى قاديشا (١) جاعلة تلك الحقول والهضاب صفحة بيضاء ترسم عليها الارياح خطوطاً تمحوها الارياح وتتلاعب بها العواصف مازجة الجو الغضوب بالطبيعة الهائلة

اختبأ الانسان فى منازله والحيوان فى مرابضه وسكنت حركة كل ذى نسمة حية ولم يبق غير برد قارص وزمهرير هائج وليل أسود مخيف وموت قوى مريع

«١» وادي قاديشا أي وادي القديسين سمي بهذا الاسم اذ كان ملجأ الزاهدين ومأوى النساك الهاربين من شقاء العالم وضجة الاجتماع حيث كانوا يجدون الكهوف المخروقة بيد الطبيعة والسكينة المالكة تلك الاماكن وهو واد عميق كثيراً ما ترغب الشمس في أن تفوز بنظرة من جميعه نظراً لعمه واتساعه . وادكأنه جرح بليغ فى صدر لبنان خرقه ناب الدهر غدراً بعد ان كان صديقاً صدوقاً

وكان فى منزل منفرد بين تلك القرى امرأة جالسة أمام موقد تنسج الصوف رداء وبقربها وحيدها ينظر تارة إلى أشعة النار، وطوراً إلى وجه أمه الهادىء . فى تلك الساعة عصفت الارياح بشدة وهزت أركان ذلك البيت، فذعر الصبى واقترب من أمه محتمياً بحنوها من غضب العناصر ، فضمته إلى صدرها وقبلته ثم أجلسته على ركبتيها وقالت : « لا تجزع يا ابنى ، فالطبيعة تريد أن تعظ الانسان مظهرة عظمتها تجاه صغره ، وقوتها بجانب ضعفه . لا تخف يا ولدى فمن وراء الثلوج المتساقطة والغيوم المتلبدة والارياح العاصفة روح قدوس كلى عالم بما تحتاجه الحقول والآكام . من وراء كل شىء كوة ناظرة إلى حقارة الانسان بعين الشفقة والرحمة . . لا تجزع يا فلذة كبدى ، فالطبيعة التى ابتسمت فى الربيع وضحكت فى الصيف وتأوهت فى الخريف تريد أن تبكى الآن ، ومن دموعها الباردة تستقى الحياة الرابضة تحت أطباق الثرى . نم يا ولدى ، ففى الغد تستيقظ وترى السماء صافية الاديم ، والحقول لابسة رداء الثلج الناصع مثلما ترتدى النفس ثوب الطهر بعيد مصارعة الموت . نم ياوحيدى ، فوالدك ناظر الآن الينا من مسارح الأبدية وحبذا عاصفة وثلوج تقربنا من ذكر تلك النفوس الخالدة، نم يا حبيبى ، فمن هذه العناصر المتحاربة بعنف سوف تجنى الازهار الجميلة عند ما يجىء نيسان.

كذا الانسان يا ابنى لا يستثمر المحبة إلا بعد بعاد ألم، وصبر مر، وقنوط متلف . نم ياصغيرى ، فسوف تأتى الأحلام العذبة إلى نفسك غير خائفة من هيبة الليل وبطش البرد »

ونظر الصبى الى أمه وقد كحل النعاس عينيه وقال: «لقد أثقل أجفانى الكرى يا أماه وأخاف أن أنام قبل تلاوة الصلاة ، فعانقته الأم الحنونة ونظرت من وراء الدموع الى وجهه الملاكى ثم قالت : « قل معى ياولدى — اشفق يارب على الفقراء واحمهم من قساوة البرد القارص واستر جسومهم العارية بأيديك ، انظر الى اليتامى النائمين فى الاكواخ وأنفاس الثلج تكلم أجسامهم ، اسمع يارب نداء الارامل القائمات فى الشوارع بين مخالب الموت وأظفار البرد . امدد يدك يارب الى قلب الغنى وافتح بصيرته ليرى فاقة الضعفاء المظلومين . ارفق يارب بالجائعين الواقفين أمام الابواب فى هذا الليل الظلوم واهد الغرباء الى المآوى الدافئة وارحم غربتهم . انظر يارب الى العصافير الصغيرة واحفظ بيمينك الاشجار الخائفة من قساوة الرياح . . ليكن هذا يارب »

ولما عانق الكرى نفس الصبى مددته والدته على فراشه وقبلت جبهته بشفتين مرتجفتين ثم رجعت وجلست أمام الموقد تنسج له الصوف رداء

الدهر والامة

***

على سفح لبنان بقرب جدول ينسل بين الصخور كاسلاك فضية جلست راعية يحيط بها قطيع غنم مهزول يرتعى الاعشاب اليابسة بين الاشواك الخضة — صبية تنظر نحو الشفق البعيد كأنها تقرأ ما آتي الآتي على صفحات الجو وقد نمق الدمع عينيها مثلما ينمق الندى أزهار النرجس وفتح الأسى شفتيها كأنه يريد سلب قلبها تنهداً

ولما جاء المساء وأخذت تلك الروابى تلتف برداء الظل وقف أمام الصبية فجأة شيخ يتدلى شعره الأبيض على صدره وكتفيه حاملا بيمينه منجلاً سنيناً وقال بصوت يحاكى هدير الامواج « سلام على سوريا »

فوقفت الفتاة مذعورة وأجابته بصوت يقطعه الوجل ويصله الحزن قائلة : « ماذا تبتغى الآن منى أيها الدهر ؟ »

ثم اومأت نحو أغنامها وزادت : « هذا بقايا قطيع كان يملأ الاودية »

هذه فضلة مطامعك فهل جئت لتستزيد منها

هذه هي المسارح التى أجد بها دوس قدميك وقد كانت منبت الخصب والرزق. كانت نعاجي ترتعى رؤوس الازهار وتدر لبناً ذكياً فها هى الآن خمص البطون تقضم الأشواك وأصول الاشجار مخافة الفناء

اتق الله يادهر وانصرف عنى فقد كرهتني الحياة ذكرى مظالمك وحببت إلى الموت قساوة منجلك

اتركنى ووحدتى أرشف الدمع شراباً واتنشق الحزن نسيما واذهب يادهر إلى الغرب حيث اقوم فى عرس الحياة وعيدها ودعني انتحب فى مآتم أنت عاقدها »

فنظر الشيخ اليها نظرة الأب وقد أخفى منجله طى أثوابه وقال :

« ما أخذت منك ياسوريا إلا بعض عطاياى وما كنت ناهباً قط بل مستعيراً أرد، ووفيا ارجع. واعلمى ان لاخواتك الأمم نصيباً باستخدام مجد كان عبدك، وحقاً بلبس رداء كان لك. أنا والعدل أقنومان لذات واحدة. فلا يحمل بي سوى اعطاء اخواتك ما أعطيتك ولست قادراً على تسويتكن فى محبتى لان المحبة لا تقسم إلا على السواء. لك ياسوريا اسوة بجاراتك مصر وفارس واليونان إذ لكل منهن

قطيع يشابه قطيعك ومرعى نظير مرعاك . أن ما تدعينه انحطاطاً ياسوريا أدعوه نوماً واجباً يعقبه النشاط والعمل ، فالزهرة لا تعود إلى الحياة إلا بالموت ، والمحبة لا تصير عظيمة إلا بعد الفراق »

واقترب الشيخ من الفتاة ومد يده قائلا : هزى يدى يا ابنة الانبياء » فأخذت يده وهى تنظر اليه من وراء الدمع وقالت : « الوداع أيها الدهر الوداع » فأجابها : « الى اللقاء ياسوريا الى اللقاء »

حينئذ اختفى الشيخ كما يختفى البرق فنادت الصبية أغنامها ومشت مرددة : « هل من لقاء ياترى هل من لقاء ؟ »

أمام عرش الجمال

* * *

هربت من الاجتماع وهمت فى ذلك الوادى الوسيع متبعاً مجارى الجدول تارة ومصغياً الى محاورات العصافير طوراً حتى بلغت مكاناً حمته الاغصان من نظرات الشمس فجلست أسامر وحدتى وأناجى نفسى — نفس ظامئة رأت كل مايرى سراباً وكل ما لا يرى شراباً

ولما انطلقت عاقلتى من محبس المادة الى فضاء الخيال التفت فاذا بفتاة واقفة على مقربة منى . حورية لم تتخذ من الحلي والحلل سوى غصن من الكرمة تستر به بعض قامتها واكليل من الشقيق يجمع شعرها الذهبي . . . واذ علمت من نظراتى انى صرت مسلوب الفجأة والحيرة قالت : « أنا ابنة الاحراج فلا تجزع » قلت وقد ردت حلاوة صوتها بعض رمقى : « وهل يقطن من كان مثلك برية سكنتها الوحشة والوحوش ؟ قولى لى بعيشك من أنت ومن أين أتيت ؟ » فقالت وقد جلست على الاعشاب : « أنا رمز الطبيعة . أنا العذراء التى

عبدها آباؤك فبنوا لها مذابح وهياكل فى بعلبك وافقا وجبيل » قلت تلك الهياكل قد انهدمت وعظام أجدادى ساوت أديم الارض ولم يبق من آثار آلهتهم وأديانهم سوى صفحات قليلة فى بطون الكتب » قالت : « بعض الآلهة يحيون بحياة عبادهم ويموتون بموتهم . وبعضهم يحيون بألوهية ازلية أبدية . أما ألوهيتى فهى مستمدة من جمال تراه كيفما حولت عينيك — جمال هو الطبيعة بأسرها . جمال كان بدء سعادة الراعى بين الربى والقروى بين الحقول والعشائر الرحل بين الجبل والساحل . جمال كان للحكيم مرقاة الى عرش حقيقة لاتجرح » قلت ودقات قلبي تقول ما لا يعرفه اللسان : « ان الجمال قوة مخيفة رهيبة . » فقالت وعلى شفتيها ابتسامة الازهار وفى نظرها أسرار الحياة: « أنتم البشر تخافون كل شيء حتى ذواتكم . تخافون السماء وهى منبع الامن . تخافون الطبيعة وهى مرقد الراحة وتخافون إله الآلهه وتعزون اليه الحسد والغضب وهو ان لم يكن محبة ورحمة لم يكن شيئاً »

وبعد سكينة مازجتها الاحلام اللطيفة سألتها : « ما هذا الجمال ؟ فقد تباين الناس بتعريفه ومعرفته مثلما اختلفوا بتمجيده ومحبته » . قالت : « هو ما كان بنفسك جاذب اليه — هو ما تراه وتود أن تعطىَ لا أن تأخذ — هو ما شعرت عند

ملقاه بأياد ٍ ممدودة من أعماقك لضمه الى أعماقك — هو ماتحسبه الاجسام محنة والارواح منحة — هو ألفة بين الحزن والفرح — هو ما تراه محجوباً وتعرفه مجهولا ونسمعه صامتاً — هو قوة تبتدىء فى قدس أقداس ذاتك وتنتهى فى ما وراء تخيلاتك ...... »

واقتربت ابنة الأحراج منى ووضعت يدها المعطرة على عيني ولما رفعتها رأيتنى وحيداً فى ذلك الوادى ، فرجعت ونفسى مرددة « ان الجمال هو ما تراه وتود أن تعطى لا أن تأخذ »



زيارة الحكمة

***

فى هدوء الليل جاءت الحكمة ووقفت بقرب مضجعي ونظرت إليّ نظرة الام الحنون ومسحت دموعي وقالت « سمعت صراخ نفسك فأتيت لأعزيها . ابسط قلبك أمامي فاملأه نوراً . سلني فأريك سبيل الحق » فقلت : « من أنا أيتها الحكمة وكيف سرت الى هذا المكان المخيف ؟ — ما هذه الاماني العظيمة والكتب الكثيرة والرسوم الغريبة ؟ ما هذه الافكار التي تمر كسرب الحمام ؟ ما هذا الكلام المنظوم بالميل ، المنثور باللذة ؟ ما هذه النتائج المحزنة ، المفرحة ، المعانقة روحي ، المساورة قلبي ؟ ما هذه العيون المحدقة بي ، الناظرة أعماقي ، المنصرفة عن آلامي ؟ ما هذه الاصوات النائحة على أيامي المترنمة بصغري ؟ ما هذا الشباب المتلاعب بأميالي ، المستهزىء بعواطفي ، الناسي أعمال الامس ، الفارح بتفاهة الحال ، المستنكف من بطء الغد ؟ ماهذا العالم السائر بي الى حيث لاأدري ، الواقف معي موقف الهوان ؟ ما هذه الأرض

الفاغرة فاها لابتلاع الاجسام ، المفرجة صدرها لسكنى المطامع ؛ ما هذا الانسان الراضى بمحبة السعادة ، ودون وصالها الهاوية ، الطالب قبلة الحياة والموت يصفعه ، الشارى دقيقة اللذة بعام الندامة ، المستسلم للكرى والاحلام تناديه السائر مع سواقى الجهالة الى خليج الظلمة ؛ ما هذه الاشياء أيتها الحكمة ؟ . . . »

فقالت : « أنت تريد أيها البشرى أن ترى هذا العالم بعين إله وتريد أن تفقه مكنونات العالم الآتى بفكرة بشرية وهذا منتهى الحماقة . اذهب الى البرية تجد النحلة حائمة حول الزهور والنسر ينقض على الفريسة . ادخل بيت جارك ترى الطفل مدهوشاً بأشعة النار والوالدة مشغولة بأعمال منزلها . كن أنت كالنحلة ولا تصرف أيام الربيع ناظراً أعمال النسر . كن كالطفل وافرح بأشعة النار ودع والدتك وشأنها. كل ماتراه كان ويكون من أجلك . الكتب الكثيرة والرسوم الغريبة والافكار الجميلة هى أشباح نفوس الذين تقدموك . الكلام الذى تحوكه هو الواصل بينك وبين اخوانك البشر . النتائج المحزنة المفرحة هى البذور التى القاها الماضى فى حقل النفس وسوف يستغلها المستقبل . . . . ان هذا الشباب المتلاعب بأميالك هو هو الفاتح باب قلبك

لدخول النور . ان هذه الارض الفاغرة فاها هى التى تخلص نفسك من عبودية جسدك . ان هذا العالم السائر بك هو قلبك فقلبك هو كل ماتظنه عالماً. ان هذا الانسان الذى تراه جاهلا وصغيراً هو الذى جاء من لدن الله ليتعلم الفرح بالحزن والمعرفة من الظلمة ... »

ووضعت الحكمة يدها على جبهتى الملتهبة وقالت : —

« سر الى الامام ولا تقف قط فالامام هو الكمال ، سر ولا تخش أشواك السبيل فهى لا تستبيح الا الدماء الفاسدة »



حكاية صديق

١

عرفته فتى ضائعاً في مسالك حياته ، محكوماً بمفاعيل شبيبته ، مستميتا في ادراك غرض أمياله . عرفته زهرة لينة حملتها رياح النزق الى لجة الشهوات

عرفته في تلك القرية صبيا شرسا يمزق بيديه أعشاش العصافير ويميت أفراخها ، ويسحق برجليه تيجان الأزهار ويبيد محاسنها . وعرفته في المدرسة يافعا ، بعيداً عن الاقتباس ، قريبا من الغطرسة ، عدواً للسكينة . وعرفته في المدينة شابا يتاجر بشرف أبيه في سوق الخسائر ، ويبذر أمواله في نوادي التهتك ، ويعطي عاقلته الى ابنة الكرمة

ولكني كنت أحبه . أحبه محبة يساورها الأسف ويمازجها الاشفاق . أحبه لان منكراته لم تكن نتائج نفس صغيرة ، بل كانت مآتي نفس ضعيفة قانطة . النفس أيها الناس تميل عن سبل الحكمة مكرهة وتعود اليها مريدة . وللشبيبة أعاصير تهب حاملة غباراً ورمالا تملأ الاجفان فتغمضها وتعميها — تعميها إلى أمد بعيد في أكثر المواطن

أحببت هـذا الفتى وكنت مخلصا له لانني رأيت حمامة ضميره تغالب نسر سيئاته فتغلب تلك الحمامة بقوة عدوها لا بجبانتها . الضمير قاض عادل ضعيف والضعف واقف في سبيل تنفيذ أحكامه

قلت أحببته والمحبة تأتي بأشكال مختلفة ، فهي الحكمة آناً والعدل آونة ، والأمل أخرى ، فمحبتي له كانت أسلي باستظهار نور شمس الوضعى على ظلمة متاعبها العرضية . على أنني كنت جاهلا أنى وأين تتبدل الادران بنقاوة ؛ والشراسة وداعة ، والطيش بحكمة ، والانسان لا يدرى كيفية انعتاق النفس من عبودية المادة إلا بعد الانعتاق ، ولا يعرف كيف تبتسم الازهار إلا بعد مجيء الصباح

٢

مرت الأيام آخذة باعتناق الليالى ، وأنا أذكر ذلك الفتى بغصات مؤلمة ، وأردف لفظ اسمه بتنهيدات تجرح القلب وتدمى . حتى وافانى بالأمس كتاب منه قال فيه :

— تعال إلى ياصديقى فأنا أريد أن أجمع بينك وبين فتى يسر قلبك لقاؤه وتطيب نفسك بمعرفته . . .

قلت : ويحى ! أيريد أن يشفع صداقته المحزنة بصداقة آخر على شاكلته ، أو لم يكن وحده أمثولة كافية لتعريف آيات

الضلال ؟ وهل يروم الآن تذييل تلك الامثولة بآيات رفاقه كيلا يفوتنى حرف من كتاب المادة ؟ ثم قلت: اذهب فالنفس تجنى من العوسج تينا بحكمتها . والقلب يستمد من الظلمة نوراً بمحبته . . . ولما جاء الليل ذهبت فوجدت ذلك الفتى منفرداً فى غرفته يقرأ كتاباً شعرياً فحييته مستغرباً وجود الكتاب بين يديه وقلت : « أين الصديق الجديد » قال: « هو أنا ياخليلي هو أنا » ثم جلس بهدوء ما عهدته فيه ونظر إلى وفى عينيه نور غريب يخرق الصدر ويحيط بالجوارح . تلك العيون التي طالما تأملتها ولم أرَ فيها غير العنف والقساوة أصبحت تبعث نوراً يملأ القلب انعطافاً . ثم قال بصوت حسبته صادراً من غيره : « أن ذاك الذى عرفته فى الحداثة ورافقته أيام المدرسة وماشيته فى الشبيبة قد مات وبموته ولدت أنا . أنا صديقك الجديد فخذ بيدى » . أخذت يده فشعرت عند الملامسة أن فى تلك اليد روحا لطيفا يسرى مع الدماء — تلك اليد العنيفة قد صارت لينة . تلك الأصابع التى شابهت بالأمس مخالب النمر بأعمالها أصبحت تلامس القلب برقتها . ثم قلت — وليتنى أذكر غرابة ما قلت: « من أنت وكيف سرت وأين صرت ؟ هل اتخذك الروح هيكلا فقدسك أم أنت تمثل أمامى دوراً شعريا ؟ » . قال : «أى يا صديقى أن الروح قد حل علي وقدسنى . الحب العظيم قد جعل قلبي مذبحا طاهراً . هى المرأة يا خليلي — المرأة التى

ظننتها بالأمس ألهية الرجل قد أنقذتني من ظلمة الجحيم وفتحت أمامي أبواب الفردوس فدخلت . المرأة الحقيقية قد ذهبت بي إلى أردن محبتها وعمدتني . تلك التي احتقرت أختها بغباوتي قد رفعتني إلى عرش المجد . تلك التي دنست رفيقتها بجهلي قد طهرتني بعواطفها . تلك التي استعبدت بنات جنسها بالذهب قد حررتني بجمالها ... تلك التي أخرجت آدم الأول من الجنة بقوة إرادتها وضعفه قد أعادتني إلى تلك الجنة بحنوها وانقيادي .

في تلك الدقيقة نظرت اليه فوجدت المدامع تتلألأ في عينيه ، والابتسام يراود شفتيه ، وشعاع الحب يكلل رأسه ، فاقتربت منه وقبلت جبهته متبركا مثلما يقبل الكاهن صحن المذبح . ثم ودعته ورجعت مردداً قوله : « تلك التي أخرجت آدم من الجنة بقوة إرادتها وضعفه قد أعادتني إلى تلك الجنة بحنوها وانقيادي »

بين الحقيقة والخيال

* * *

تحملنا الحياة من مكان الى مكان وتنتقل بنا التقادير من محيط الى آخر ونحن لانرى الا ماوقف عثرة فى سبيل سيرنا ولا نسمع سوى صوت يخيفنا

يتجلى لنا الجمال على كرسى مجده فنقترب منه وباسم الشوق ندنس أذياله ونخلع عنه تاج طهره . يمر بنا الحب مكتسبا ثوب الوداعة فنخافه ونختبيء فى مغائر الظلمة أو نتبعه ونفعل باسمه الشرور ، والحكيم بيننا يحمله نيراً ثقيلا وهو ألطف من أنفاس الازهار وأرق من نسمات لبنان . تقف الحكمة فى منعطفات الشوارع وتنادينا على رؤوس الاشهاد فنحسبها بطلا ونحتقر متبعيها . تدعونا الحرية الى مائدتها لنلتذ بخمرها وأطعمتها فنذهب ونشره فتصير تلك المائدة مرسحا للابتذال ومجالا لاحتقار الذات . تمد الطبيعة نحونا يد الولاء وتطلب منا أن نتمتع بجمالها فنخشى سكينتها ونلتجيء الى المدينة وهناك نتكاثر على بعضنا بعضا كقطيع رأى ذئبا خاطفا . تزورنا الحقيقة منقادة بابتسامة طفل أو قبلة محبوبة فنوصد

دونها أبواب عواطفنا ونغادرها كمجرم دنس . القلب البشرى يستنجد بنا والنفس تنادينا ونحن أشد صمما من الجماد لا نعى ولا نفهم واذا ماسمع أحد صراخ قلبه ونداء نفسه قلنا هذا ذو جنة وتبرأنا منه

هكذا تمر الليالى ونحن غافلون وتصافحنا الايام ونحن خائفون من الليالى والايام . نقترب من التراب والالهة تنتمى الينا ونمر على خبز الحياة والمجاعة تتغذى من قوانا فما أحب الحياة الينا وما أبعدنا عن الحياة



يا خليلى الفقير

يا من ولدت على مهد الشقاء وربيت على أحضان الذل وشببت فى منازل الاستبداد ، أنت الذى تأكل خبزك اليابس بالتنهد وتشرب ماءك العكر ممزوجا بالدموع والعبرات

ويا أيها الجندى المحكوم عليه من شرائع البشر الظالمة بأن يترك رفيقته وصغاره ومحبيه ويذهب الى ساحة الموت من أجل طمع يدعونه الواجب

ويا أيها الشاعر الذى يعيش غريبا فى وطنه ومجهولا بين معارفه ويرضى من العيش بمضغة ومن الحطام بالحبر والورق

ويا أيها السجين المطروح فى الظلمة من أجل ذنب صغير جسَّمه غى الذين يقابلون الشر بالشر واستغربته عاقلة الألى يرومون الاصلاح بواسطة الفساد

وأنت أيتها المسكينة التي وهبها الله جمالا رآه فتى العصر فاتبعك وغرك وتغلب على فقرك بالذهب فاستسلمت له وغادرك فريسة ترتعد بين مخالب الذل والتعاسه

أنتم يا أحبائى الضعفاء شهداء شرائع الانسان أنتم تعس

وتعاستكم نتيجة بغى القوى وجور الحاكم وظلم الغنى وأنانية عبد الشهوات

لا تقنطوا ، فمن مظالم هذا العالم ، من وراء المادة ، من وراء الغيوم ، من وراء الأثير ، من وراء كل شيء — قوة هى كل عدل وكل شفقة وكل حنو وكل محبة

أنتم مثل أزهار نبتت فى الظل . سوف تمر نسمات لطيفة وتحمل بذوركم الى نور الشمس فتحيون هناك حياة جميلة

أنتم نظير أشجار عارية مثقلة بثلوج الشتاء . سوف يأتى الربيع ويكسوكم أوراقا خضراء غضة

سوف تمزق الحقيقة غشاء الدمع الحاجب ابتساماتكم
أنا أقبلكم يا اخوتي وأحتقر مضطهديكم



مناحة فى الحقل

عنـد الفجر قبيـل بزوغ الشمس من وراء الشفق جلست فى وسط الحقل أناجى الطبيعة . فى تلك الساعة المملوءة طهراً وجمـالا بينما كان الانسان مستتراً طى لحف الكرى تتنابه الاحـلام تارة واليقظة أخرى كنت متوسداً الاعشـاب أستفسر كل ماأرى عن حقيقة الجمـال وأستحكى ما يرى عن جمال الحقيقة

ولمـا فصلت تصوراتى بينى وبين البشريات وأزاحت تخيلاتى برقع المادة عن ذاتى المعنوية شعرت بنمو روحى يقربنى من الطبيعة ويبين لى غوامض أسرارها ويفهمنى لغة مبتدعاتها

وبينما كنت على هــذه الحالة مر النسيم بين الاغصان متنهـداً تنهد يتيم يائس فسألت مستفهماً : لماذا تتنهد يا أيها النسيم اللطيف ؟ فأجاب لانى ذاهب نحو المدينـــة مدحوراً من حرارة الشمس . الى المدينة حيث تتعلق بأذيالى النقيـة مكروبات الأمراض وتتشبث بى أنفاس البشر السامـة . من أجل ذلك ترانى حزينا .

ثم التفت نحو الأزهار فرأيتها تذرف من عيونها قطرات الندى دمعا فسألت : « لماذا البكاء يا أيتها الأزهار الجميلة ؟ » فرفعت واحـــدة منهن رأسها اللطيف وقالت : « نبكى لان الانسان سوف يأتى و يقطع أعناقنا و يذهب بنا نحو المدينة و يبيعنا كالعبيد ونحن حرائر واذا ما جاء المساء وذبلنا رمى بنا إلى الأقذار . كيف لا نبكي و يد الانسان القاسية سوف تفصلنا عن وطننا الحقل »

وبعد هنيهة سمعت الجدول ينوح كالثكلى فسألته : « لماذا تنوح يا أيها الجدول العذب ؟ » فأجابنى «لاننى سائر كرها الى المدينة حيث الانسان يحتقرنى ويستعيض عنى بعصير الكرمة ويستخدمنى لحمل أدرانه . كيف لا أنوح وعن قريب تصبح نقاوتي وزراً وطهارتي قذراً »

ثم أصغيت فسمعت الطيور تغنى نشيداً محزنا يحاكى الندب فسألتها : « لماذا تندبين يا أيتها الطيور الجميلة ؟ » فاقترب منى عصفور ووقف على طرف الغصن وقال : «سوف يأتى ابن آدم حاملا آلة جهنمية تفتك بنا فتك المنجل بالزرع فنحن نودع بعضنا بعضا لاننا لا ندرى من منا يتملص من القدر المحتوم . كيف لا نندب والموت يتبعنا أينما سرنا »

طلعت الشمس من وراء الجبل وتوجت رؤوس الاشجار بأكاليل ذهبية وأنا اسأل ذاتى لماذا يهدم الانسان ما تبنيه الطبيعة؟

بين الكوخ والقصر

١

جاء المساء وشعشعت أنوار الكهربائية فى صرح الغنى فوقف الخدام على الأبواب بملابس مخملية وعلى صدورهم الازرار اللامعة ينتظرون مجيء المدعوين

صدحت الموسيقى بأنغامها المطربة وتقاطر الاشراف والشريفات تجرهم الخيول المطهمة نحو ذلك القصر فدخلوا يرفلون بالملابس المزركشة ويجرون أذيال العزة والفخر

قام الرجال ودعوا النساء للرقص فوقفن واخترن الاعزاء وأصبحت تلك المقصورة روضة تمر بها نسيمات الموسيقى فتتمايل ازاهرها تيها واعجابا

انتصف الليل فمدت سفرة عليها كل ما عز من الفاكهة وطاب من الألوان ودارت الكؤوس على الجميع فلعبت بنت الكرمة فى عقولهم حتى العبتهم

جاء الصباح وفرق شمل أولئك الاشراف الأغنياء بعد أن أضناهم السهر وسرقت عاقلتهم الخمرة واتعبهم الرقص وأذبلهم

القصف وذهب كل الى فراشه الناعم

٢

بعد أن غابت الشمس وقف رجل يرتدى أثواب الشغل أمام باب كوخ حقير وقرع ففتح له ودخل وحيي مبتسما ثم جلس بين صبية يصطلون بقرب النار . وبعد ردهة هيأت زوجته العشاء فجلسوا جميعا حول مائدة خشبية يلتهمون الطعام ثم قاموا وجلسوا بقرب مسرجة ترسل سهام أشعتها الصفراء الضعيفه الى كبد الظلمه

وبعد مرور الهزيع الاول من الليل قاموا بسكينة كلية واستسلموا لملك الرقاد

جاء الفجر فهب ذلك الفقير من نومه وأكل مع صغاره وزوجته قليلا من الخبز والحليب ثم قبلهم وحمل على كتفه معولا ضخما وذهب الى الحقل ليسقيه من عرق جبينه ويستثمر ويطعم قواه أولئك الاغنياء الأقوياء الذين صرفوا ليلة أمس بالقصف والخلاعه

طلعت الشمس من وراء الجبل وثقلت وطأة الحر على رأس ذلك الحارث وأولئك الاغنياء ما برحوا خاضعين لسنة الكرى الثقيل فى صروحهم الشاهقه

هذه مأساة الإنسان المستتبة على مرسح الدهر وقد كثر المتفرجون المستحسنون وقل من تأمل وعقل

طفلان

* * *

وقف الأمير على شرفة القصر ونادى الجموع المزدحمة فى تلك الحديقة وقال: « أبشركم وأهنئ البلاد، فالأميرة قد وضعت غلاماً يحيي شرف عائلتى المجيدة ويكون لكم فخراً وملاذاً ووريثاً لما أبقته أجدادى العظام. افرحوا وتهللوا فمستقبلكم صار مناطاً بسليل المعاني »

فصاحت تلك الجموع وملأت الفضاء بأهازيج فرح متأهلة بمن سوف يربى على مهد الترف ويشب على منصة الاعزاز ويصير بعد ذلك حاكماً مطلقاً برقاب العباد، ضابطاً بقوته أعنة الضعفاء، حراً باستخدام أجسادهم وتلاف أرواحهم. من أجل ذلك كانوا يفرحون ويغنون الأناشيد ويعاقرون كاسات السرور

وبينما سكان تلك المدينة يمجدون القوى ويحتقرون ذواتهم ويتغنون باسم المستبد والملائكة تبكى على صغرهم كان فى بيت حقير مهجور امرأة مطروحة على سرير السقام تضم إلى صدرها الملتهب طفلا ملتفاً بأقمطة بالية

صبية كتبت لها الأيام فقراً والفقر شقاء فأهملت من

بنى الانسان . زوجة أمات رفيقها الضعيف ظلم الأمير القوى وحيدة بعثت اليها الآلهة فى تلك الليلة رفيقاً صغيراً يكبل يديها دون العمل والارتزاق

ولما سكنت جلبة الناس فى الشوارع وضعت تلك المسكينة طفلها على حضنها ونظرت فىعينيه اللامعتين وبكت بكاءً مرّا ، كأنها تريد أنتعمده بالدموع السخينة ، وقالت بصوت تتصدع له الصخور : « لماذا جئت يا فلذة كبدى من عالم الأرواح ؟ أطمعاً بمشاطرتى الحياة المرة ؟ أرحمة بضعفى ؟ لماذا تركت الملائكة والفضاء الوسيع وأتيت إلىهذه الحياة الضيقة المملوءة شقاء ومذلة ؟ ليس عندى يا وحيدى إلا الدموع ، فهل تتغذى بها بدلاً من الحليب ؟ وهل تلبس ذراعىّ العاريتين عوضاً عن النسيج ؟ صغار الحيوان ترعى الأعشاب وتبيت فىأوكارها آمنة ، وصغار الطير تلتقط البذور وتنام بين الأغصان مغبوطة ، وأنت يا ولدى ليس لك إلا تنهداتى وضعفى »

حينئذ ضمت الطفل إلى صدرها بشدة كأنها تريد أن تجعل الجسدين جسداً واحداً ورفعت عينيها نحو العلاء وصرخت (ارفق بنا يا رب)

ولما انقشعت الغيوم عن وجه القمر دخلت أشعته اللطيفة من نافذة ذلك البيت الحقير وانسكبت على جسدين هامدين . . . . .

شعراء المهجر

* * *

لو تخيل الخليل أن الأوزان التى نظم عقودها وأحكم أوصالها ستصير مقياساً لفضلات القرائح وخيوطاً تعلق عليها أصداف الافكار لنثر تلك العقود وفصم عرى تلك الاوصال

ولو تنبأ المتنبي وافترض الفرض ان ما كتباه سيصبح مورداً لافكار عقيمة ومقوداً لرؤوس مشاعير يومنا لهرقا المحابر فى محاجر النسيان وحطم الاقلام بأيدى الاهمال

ولو درت أرواح هوميروس وفرجيل وأعمى المعرة وملتون أن الشعر المتجسم من النفس المشابهة الله سيحط رحاله فى منازل الاغنياء لبعدت تلك الارواح عن أرضنا واختفت وراء السيارات

ما أنا من المتعنتين ، لكن يعز علي أن أرى لغة الارواح تتناقلها ألسنة الاغبياء ، وكوثر الآلهة يسيل على أقلام المدعين، ولست منفرداً فى وحدة الاستياء بل رأيتنى واحداً من كثيرين نظروا الضفدع ينتفخ تمثلا بالجاموس

الشعر ياقوم روح مقدسة متجسمة من ابتسامة تحي القلب

أو تنهدة تسرق من العين مدامعها . أشباح مسكنها النفس وغذاؤها القلب ومشربها العواطف ، وان جاء الشعر على غير هذه الصور فهو كمسيح كذاب نبذه أوفق

فيا إلهة الشعر — يا إداتو — اغتفري ذنوب الألى يقتربون منك بثرثرة كلامهم ولا يعبدونك بشرف أنفسهم وتخيلات أفكارهم

ويا أرواح الشعراء الناظرة الينا من أعالي عالم الخلود ليس لنا عذر لتقدمنا من مذابح زينتموها بلآلىء أفكاركم وجواهر أنفسكم سوى ان عصرنا هذا قد كثرت فيه قلقلة الحديد وضجيج المعامل فجاء شعرنا ثقيلا ضخما كالقطارات ومزعجاً كصفير البخار

وأنتم أيها الشعراء الحقيقيون سامحونا فنحن من العالم الجديد نركض وراء الماديات فالشعر عندنا صار مادة تتناولها الايدى ولا تدرى بها النفوس



تحت الشمس

***

« رأيت كل الأعمال التي عملت تحت »
« الشمس فإذا الكل باطل وقبض الريح »
(الجامعة)

يا روح سليمان السابحة في فضاء عالم الأرواح ، يامن خلعت ثوب المادة الذي نحن نرتديه الآن . لقد تركت وراءك هذا الكلام المنبثق من الضعف والتفريط الذي يلد ضعفا وقنوطا في أسرى الأجسام

أنت تعلمين الآن ان في هذه الحياة معنى لا يخفيه الموت ، ولكن انى للبشر تلك المعرفة التي لا تدرك الا بعد انعتاق النفس من ربقة التراب ؟

أنت تعلمين الآن أن الحياة ليست كقبض الريح ، وأن ليس تحت الشمس شيء باطل ، بل كل شيء كان وسيبقى سائراً نحو الحقيقة ، ولكن نحن المساكين قد تشبثنا بأقوالك وتدبرناها وما برحنا نظنها حكمة باهرة وهي — أنت تعلمين — ظلمة تضيع العاقلة وتخفى الأمل

أنتِ تعلمين الآن أن للحماقة والشر والظلم أسباباً جميلة ، ونحن لا نرى جمالا إلا بظواهر الحكمة ونتاج الفضيلة وثمار العدل .

أنتِ تعلمين أن الحزن والفقر يطهران القلب البشرى ، وعاقلتنا القاصرة لا ترى شيئاً حرياً بالوجود إلا اليسر والفرح .

أنتِ تعلمين الآن أن النفس سائرة نحو النور قهراً من عقبات العمر ، ونحن ما برحنا نردد كلامك الذى يدل على أن الانسان ليس إلا ألعوبة فى يد القوة غير المعروفة

أنتِ ندمتِ على بثك روحا يضعف محبة الحياة الحاضرة ويميت الشغف بالحياة الآتية ؛ ونحن لم نزل مصرين على حفظ أقوالك

يا روح سليمان الساكنة فى عالم الخلود ، أوحى إلى محبى الحكمة ألا يسلكوا سبل القنوط والجحود ، فقد يكون ذلك كفارة عن خطأ غير مقصود



نظرة الى الآتي

* * *

من وراء جدران الحاضر سمعت تسابيح الانسانية . سمعت أصوات الاجراس تهز دقائق الاثير معلنة بدء الصلاة فى معبد الجمال — أجراس سبكتها القوة من معدن الشواعر ورفعتها فوق هيكلها المقدس — القلب البشرى

من وراء المستقبل رأيت الجموع ساجدة على صدر الطبيعة متجهة نحو المشرق ، منتظرة فيض نور الصباح — صباح الحقيقة

رأيت المدينة قد اندثرت ولم يبق من آثارها غير طلل بال يخبر الرجال باندحار الظلمة أمام النور

رأيت الشيوخ جالسين بظل أشجار الحور والصفصاف وقد جاس الصبيان حولهم يسمعون أخبار الايام

رأيت الفتيان يوقعون على القيثارة وينفخون فى الناى والصبايا مسدولات الشعر يرقصن حولهم تحت أغصان الياسمين والفل

رأيت الكهول يحصدون الزرع والنساء يحملن الاغمار ويترنمن بالاناشيد أوحتها الغبطة والمسرة

رأيت المرأة مستعيضة عن الملابس المشوهة باكليل من الزنبق ومنطقة من أوراق الاشجار الغضة

رأيت الالفة مستحكمة بين الانسان والمخلوقات ، فجماعات الطير والفراش تقترب منه آمنة وسرب الغزلان تنثني نحو الغدير واثقة . نظرت فلم أرَ فقراً ولا ما يزيد عن الكفاف ، بل ألفيت الاخاء والمساواة ، ولم أرَ طبيباً ، اذ كلّ غدا طبيب ذاته بحكم المعرفة والاختبار ، ولم أر كاهناً ، لأن الضمير أصبح الكاهن الاعظم ، ولم أر محامياً ، لان الطبيعة قامت بينهم مقام محكمة تسجل معاهدات الالفة والوئام

رأيت الانسان قد علم انه حجر زاوية المخلوقات ، فترفع عن الصغائر ، وتعالى عن الدنايا ، وكشف عن بصيرة النفس مناديل الالتباس ، فاصبحت تقرأ ما تكتبه الغيوم على وجه السماء ، وما ينمقه النسيم على صفحات الماء ، وتفقه كنه أنفاس الازهار ، وتعرف معنى أغاني الشحارير والبلابل

من وراء جدران الحاضر — على مرسح الاجيال الآتية رأيت الجمال عروساً والنفس عروسة والحياة كلها ليلة القدر

ملكة الخيال

***

بلغت خرائب تدمر وقد أنهكنى المسير . فاستلقيت على أعشاب نبتت بين أعمدة سلها الدهر وأناخها الى الحضيض فبانت كأنها أشلاء حرب هائلة . وصرت أتأمل بعظائم أجلها وهى مهدومة منقوضة عن صغائر قائمة عامرة

ولما جاء الليل وتشاركت المخلوقات المتنابذة بارتداء ثوب السكينة شعرت بان فى الاثير المحيط بي سيالا يضارع البخور عطراً ويعادل الخمر فعلا ، فصرت أجرعه محكوماً وأحس بأياد خفية تتسهم عاطفتى وتثقل جفنى وتحل نفسى من سلاسلها . ثم مادت الارض واهتز الفضاء . فوثبت مدفوعا بقوة سحرية ، فوجدتنى فى روض لم يتخيلها بشر قط مصحوبا بجوق من العذارى لم يرتدين بغير الجمال، يمشين حولى ولا تلمس أرجلهن الاعشاب وينشدن تسبيحة منسوجة من أحلام الحب ويضربن على قيثارات من العاج ذات أوتار ذهبية . ولما وصلت الى منفرج قام فى وسطه عرش مرصع بالجواهر بين مسارح

تنسكب منها أنوار بلون قوس القزح وقفت العذارى على اليمين واليسار ورفعن أصواتهن عن ذى قبل ونظرن الى جهة تنبعث منها رائحة المر واللبان ، فاذا بمليكة ظهرت من بين الاغصان الزاهرة ومشت ببطء نحو العرش واستوت عليه فهبط إذ ذاك سرب حمام كالثلج بياضا واستقر حول أقدامها بشكل هلال

صار هذا والعذارى يغنين مجد المليكة سوراً ، والبخور يتصاعد لتكريمها أعمدة ، وأنا واقف أرى ما لم تره عين انسان وأسمع ما لم تعه اذن بشرى

حينئذ أشارت المليكة بيدها فسكنت كل حركة ثم قالت وصوتها يهز نفسى مثلما تفعل يد الموقع بأوتار عود ويؤثر بمجموع ذاك المحيط السحرى كأنَّ للأشياء آذاناً وأفئدةً : « دعوتك أيها الانسى وأنا ربة مسارح الخيال وحبوتك المثول أمامى وأنا مليكة غابة الاحلام فاسمع وصاياى ونادِ بها أمام البشر . قل ان مدينة الخيال عرس يخفر بابه مارد جبار فلن يدخله الا من لبس ثياب العرس . قل : هى جنة يحرسها ملاك المحبة فلا ينظرها سوى من كان على جبهته وسم الحب ، هى حقل تصورات انهاره طيبة كالخمر واطياره تسبح كالملائكة وازاهره فائحة العبير فلا يدوسه غير ابن الاحلام . خبر الانس بأنى وهبتهم كأساً يفعمه السرور فهرقوه بجهلهم فجاء

ملاك الظلمة فملأه من عصير الحزن فجرعوه صرفاً وسكروا .
قل : لم يحسن الضرب على قيثارة الحياة غير الذين لمست اناملهم وشاحي ونظرت أعينهم عرشي » فاشعيا نظم الحكمة عقوداً باسلاك محبتي ، ويوحنا روى رؤياه بلساني ، ولم يسلك دانتي مراتع الارواح بغير أدلتي ، فانا مجاز يعانق الحقيقة ، وحقيقة تبين وحدانية النفس ، وشاهد يزكي أعمال الآلهة . قل : أن للفكرة وطناً اسمى من عالم المرئيات لا تكدر سماءه غيوم السرور ، وان للتخيلات رسوماً كائنة في سماء الآلهة تنعكس على مرآة النفس ليعم رجاؤها بما سيكون بعد انعتاقها من الحياة الدنيا»

وجذبتني مليكة الخيال نحوها بنظرة سحرية وقبلت شفتي الملتهبتين وقالت : « قل ومن لا يصرف الايام على مرسح الاحلام كان عبد الايام »

عندئذ تصاعدت أصوات العذارى وارتفعت أعمدة البخور وحجبت الرؤيا . ثم مادت الارض واهتز الفضاء فوجدتني بين تلك الخرائب المحزنة وقد ابتسم الفجر وبين لساني وشفتي هذه الكلمات «ومن لا يصرف الايام على مرسح الاحلام كان عبد الايام »

▸•◆•◆•◆•◂

يا لائمي

* * *

دعنى يالائم ، ووحدتى . استحلفك بحب يضم نفسك بجمال الرفيقة ويوثق قلبك بحنو الام ويربط فؤادك بعواطف الابن ان تتركنى وحالى

خانى وشأنى وأحلامى واصبر الى الغد فالغد يقضى على بما يشاء

محضتنى النصحَ والنصحُ طيف يسير بالنفس الى مرتع الحيرة ويقودها الى حيث الحياة جامدة كالتراب

لى قلب صغير اريد أن أخرجه من ظلمة صدرى وأحمله على كفى متفحصاً اعماقه ومستحكياً أسراره ، فلا تترصده يا لائمى بنبال مذاهبك مسبباً خوفه واختفاءه ضمن قفص الضلوع قبل ان يسكب دماء خفاياه ويقوم بفرض عقدته الآلهة عند ما ابتدعته من الجمال والحب

هنا قد طلعت الشمس وغرد الهزار والبلبل وتصاعدت أرواح الآس والمنثور وأنا أريد الانعتاق من لحف الكرى لاسير مع الحملان البيضاء ، فلا تعتقنى يالائمى ولا تخفنى بأسد الغاب وصل الوادى ، لأن نفسى لا تعرف الجزع ولا تنذر بالسوء قبل مجيئه

دعنى يالائمى ولا تعظنى ، لأن المصائب فتحت بصيرتى ، والدموع جلت بصرى ، والحزن علمنى لغة القلوب

اعتزل ذكر المحرمات ، فلي من ضميرى محكمة تقضى بالعدل عليّ وتقيني العقاب أن كنت ذا برارة . وتحرمنى الثواب ان كنت من المجرمين

ها قد سار موكب الحب فمشى الجمال رافعاً أعلامه وسارت الشبيبة نافخة أبواق الفرح فلا تردعنى يالائمى ، بل دعنى اسر . فالطريق مفروشة بالورد والرياحين ، والهواء قد عطرته مجامر المسك

اعتقنى من حكاية المال وقصص المجد . لأن نفسى غنية باكتفائها ومشغولة بمجد الالهة

اعفنى من مآتى السياسة وأخبار السلطة ، لأن الارض كلها وطنى وجميع البشر مواطنى

مناجاة

☆ ☆ ☆

أين أنتِ الآن يا جميلتي؟ أفي تلك الجنة الصغيرة تسقين الأزهار التي تحبك محبة الأطفال ثدي أمها، أم في خدرك حيث أقمت الطهر مذبحاً وقفت عليه روحي وحشاشتي، أم بين كتبك تستزيدين من حكمة البشر وأنتِ غنية بحكمة الآلهة؟

أين أنتِ يا رفيقة نفسي؟ أفي الهيكل تصلين من اجلي، أم في الحقل تناجين الطبيعة مرتع اعجابك وأحلامك، أم بين أكواخ المساكين تعزين منكسرات القلوب بحلاوة نفسك وتملأين أياديهن باحسانك؟

أنتِ في كل مكان، لأنك من روح الله. وفي كل زمان، لأنك أقوى من الدهر

هل تذكرين ليالي جمعتنا وشعاع نفسك يحيط بنا كالهالة وملائكة الحب تطوف حولنا مترنمة بأعمال الروح. وتذكرين

أيام جلسنا بظل الأغصان وهى مخيمة علينا كأنها تريد أن تحجبنا عن البشر مثلما تحجب الضلوع أسرار القلب المقدسة ، هل تذكرين ممرات ومنحدرات مشينا عليها وأصابعك محبوكة بأصابعي احتباك ضفائرك وقد أسندنا رأسينا برأسينا كأننا نحتمى منا بنا . ؟ وهل تذكرين ساعة جئتك مودعاً فعانقتنى ثم قبلتنى قبلة مريمية علمتُ منها بأن الشفاه إذا انضمت جاءت بأسرار علوية لا يعرفها اللسان — قبلة كانت توطئة لتنهيدة مزدوجة حاكت نفساً نفخه «الله» فى الطين فصار انساناً . تلك تنهيدة سبقتنا إلى عالم الأرواح معلنة مجد نفسينا وهناك ستبقى حتى نجتمع بها إلى الأبد . ثم قبلتنى وقبلتنى وتبكيتنى وقلتِ والدمعُ يساعدك « ان للاجسام أغراضاً مجهولة ، فهى تفترق لشؤون عالمية وتتباعد لمآرب دنيوية ، أما الأرواح فتظل فى قبضة الحب مستأنسة حتى يجىء الموت و يسير بها إلى الله . اذهب يا حبيبى . لقد انتدبتك الحياة فأطعها ، فهى حسناء تسقى مطيعها من كوثر الذوق كؤوساً مفعمة ، أما أنا فلي من حبك عريس ملازم ، ومن ذكراك عرس طويل مبارك »

أين أنتِ الآن يا رفيقتى ؟ هل أنتِ ساهرة فى سكينة الليل نسيماً أحمله دقات قلبى وخفايا جوارحى كلما هب نحوكِ ؟

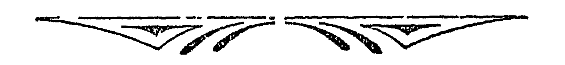
أو أنتِ ناظرة رسم فتاكِ ؟ ذلك رسم لم يعد ينطبق على مرسومه ، فالحزن قد ألقى خياله على جبهة كانت بالأمس منفرجة بقربك ، والنواح أذبل أجفاناً كانت مكحولة بجمالك ، والوجد جفف ثغراً كان مرطباً بقبلاتكِ

أين أنت يا حبيبتى ؟ هل أنتِ سامعة من وراء البحار ندائى وانتحابى ، وناظرة ضعفى ومذلتى ، وعالمة بصبرى وتجلدى ؟ أو ليست فى الهواء أرواح تنقل أنفاس محتضر متوجع ؟ أو لم تكن بين النفوس أسلاك خفية تحمل شكوى محب دنف ؟

أين أنتِ يا حياتى ؟ لقد احتضنتنى الظلمة وغلبنى الأسى . ابتسمى فى الهواء فانتعش . تنفسى فى الاثير فاحى

أين أنتِ يا حبيبتى أين أنتِ ؟

آه ما أعظم الحب وما اصغرنى !



المجرم

***

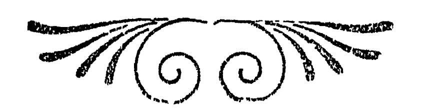
على قارعة الطريق قعد شاب مستعطياً . فتى قوى الجسم أضعفه الجوع فجلس فى منعطف الشارع ماداً يده نحو العابرين متسولا مستغيثاً بالمحسنين مردداً آيات انكساره شاكياً آلام جوعه

خيم الليل وقد يبست شفتاه وكل لسانه ولم تزل يده فارغة مثل جوفه . فقام إذ ذاك وذهب إلى خارج المدينة وجلس بين الاشجار وبكى بكاء مراً ، ثم رفع نحو السماء عينيه يغشاهما الدمع وقال والجوع يلقنه : « يارب قد ذهبت الى الموسر أطلب عملا ، فطردت لرثاثة اثوابى . وطرقت باب المدرسة ، فمنعت لفراغ يدى . ورمت الاستخدام ولو بكفاف يومى . فابعدت لسوء طالعى وأخيراً سعيت متسولا ، فرآنى عبادك يا رب وقالوا هذا قوى نشيط والاحسان لا يجوز على ابن التوانى والكسل . قد ولدتنى أمى بارادتك يارب ، وأنا كائن الآن بكيانك ، فلماذا يمنع الناس الخبز عنى وأنا طالب باسمك ؟

في تلك الدقيقة تغيرت سحنة الرجل اليائس . فانتصب وقد لمعت عيناه كالشهب ثم اقتضب من الاغصان اليابسة نبوتاً ضخماً وأشار به نحو المدينة وصرخ قائلا : « طلبت الحياة بعرق الجبين ، فلم أجدها ، فسوف أحصل عليها بقوة ساعدي . وسألت الخبز باسم المحبة ، فلم يسمعني الانسان ، فسأطلبه بأسم الشر واستزيد منه ... »

مرت الاعوام والشاب يقطع الاعناق من أجل الحصول على العقود ، ويهدم هيا كل الارواح ان تصدت لمطامعه . فنمت ثروته وعم بطشه وصار محبوباً من لصوص القوم ومخيفاً لعقلائهم . ثم انتدبه الامير وكيلا عنه في تلك المدينة شأن الامراء بانتقاء ممثليهم

كذا يبتدع الانسان من المسكين سفاحاً باستمساكه ، ومن ابن السلام قاتلا بقساوته



الرفيقة

***

أول نظرة

هى الدقيقة الفاصلة بين نشوة الحياة ويقظتها . هى الشعلة الاولى التى تنير خلايا النفس . هى أول رنة سحرية على أول وتر من قيثارة القلب البشرى . هى آونة قصيرة تعيد على مسمع النفس أخبار الأيام الغابرة ، وتكشف لبصرها أعمال الليالى ، وتبين لبصيرتها أعمال الوجدان فى هذا العالم ، وتبيح سرّ الخلود فى العالم الآتى . هى نواة تطرحها عشتروت (١) من العلاء ، فتلقيها العيون فى حقل القلب فتستنبتها العواطف ثم تستثمرها النفس . أول نظرة من الرفيقة تشابه الروح الذى كان يرف على وجه الغمر ومنه انبثقت السماء والارض . أول نظرة من شريكة الحياة تحاكى قول الله « كن »

(١) عشتروت الهة الحب والجمال عند قدماء سكان فينيقيا ولبنان وهي التى يدعوها اليونان افراديتي والرومان فينيس

أول قبلة

هى الرشفة الأولى من كأس ملأتها الآلهة من كوثر الحب . هى الحد بين شك يراود القلب فيحزنه ويقين يفعمه فيغبطه . هى مطلع قصيدة الحياة الروحية والفصل الأول من رواية الانسان المعنوى . هى عروة توثق غرابة الماضى ببهاء الآتي وتجمع بين سكينة الشواعر وأغانيها . هى كلمة تقولها الشفاه الاربع معلنة صيرورة القلب عرشاً ، والحب مليكا ، والوفاء تاجاً . هى ملامسة لطيفة تحاكى مرور أنامل النسيم على ثغر زهرة الورد حاملة معها تنهداً مستطيلا لذيذاً وأنة خفيفة عذبة ، هى بدء اهتزازات سحرية تفصل المحبين عن عالم المقاييس والكمية إلى عالم الوحى والأحلام . هى ضم زهرة الشقيق الى زهرة الجلنار ومزج أنفاسهما لتوليد نفس ثالث .. واذا كانت النظرة الاولى تشابه نواة ألقتها الهة الحب فى حقل القلب البشرى ، فالقبلة الاولى تحاكى أول زهرة فى أطراف أول غصن فى شجرة الحياة

القران

ههنا يبتدىء الحب أن ينظم نثر الحياة شعراً وينشىء من معانى العمر سوراً ترتلها الأيام وتنغمها الليالى . ههنا يزيح

الشوق ستائر الاشكال عن معميات السنين الماضية و يؤلف من نتف اللذات سعادة لا يفوقها غير سعادة النفس عند ما تعانق ربها. القران هو اتحاد ألوهيتين على إيجاد ألوهية ثالثة على الأرض. هو تكاتف اثنين قويين بحبهما لمقاومة دهر ضعيف يبغضه. هو تمازج خمرة صفراء برحيق قرمزى لتوليد شراب برتقانى (١) يحاكى لون الشفق عند مجيء الفجر. هو تنافر روحين من التنافر واتحاد نفسين مع الاتحاد. هو حلقة ذهبية من سلسلة، أولها نظرة، وآخرها اللانهاية. هو انهمال غيث نقى من سماء طاهرة نحو طبيعة مقدسة لاستخراج قوى حقول مباركة... فاذا كانت النظرة الأولى من وجه المحبوبة مثل نواة ألقتها المحبة فى حقل القلب، والقبلة الأولى من شفتيها تشابه أول زهرة فى غصن الحياة، فالقران بها يحاكى أول ثمرة من أول زهرة من أول نواة



(١) اللون البرتقاني يتولد كياويا من الاحمر والاصفر

بيت السعادة

☆ ☆ ☆

تعب قلبي في داخلي فودعني وذهب الى بيت السعادة ، ولما بلغ ذلك الحرم الذى قدسته النفس وقف حائراً ، لأنه لم يرَ هناك ما طالما توهمه . لم ير قوة ، ولا مالاً ، لا ولا سلطة . لم ير غير فتى الجمال ورفيقته ابنة المحبة وطفلتهما الحكمة

وخاطب قلبي ابنة المحبة قائلا : « أين القناعة أيتها المحبة فقد سمعت أنها تشاطركم سكنى هذا المكان ؟ » قالت : « ذهبت القناعة تكرز في المدينة حيث المطامع ، فنحن لا نحتاجها . السعادة لا تبتغي قناعة . إنما السعادة شوق يعانقه الوصال ، والقناعة سلو يساوره النسيان النفس الخالدة لا تقنع ، لأنها تروم الكمال ، والكمال هو اللانهاية »

وخاطب قلبي فتى الجمال قائلا : « أرني سر المرأه أيها الجمال

وأرني لانك معرفة » فقال : « هى أنت أيها القلب البشرى وكيفما كنت كانت . هى أنا وأينما حللت حلت . هى كالدين إذا لم يحرفه الجاهلون ، وكالبدر إذا لم تحجبه الغيوم ، وكالنسيم إذا لم تتعلق بأذياله أنفاس الفساد »

واقترب قلبي من الحكمة ابنة المحبة والجمال وقال : « أعطى حكمة أحملها إلى البشر » فأجابت : « قل هى السعادة تبتدىء فى قدس أقداس النفس ولا تأتى من الخارج »



مدينة الماضي

***

وقفت بى الحيـاة على سفح جبل الشـباب واومأت إلى الوراء . فنظرتُ ، فاذا بمدينة غريبة الشكل والرسـوم متربعة فى صدر سهول تتموج فيهـا الخيـــالات والابخرة المتلونة متوشحة بقناع ضباب لطيف يكاد يحجبها

قلت : ما هذه أيتها الحياة ؟ قالت : هى مدينـــــة الماضى فتأمل !

فتأملت ورأيت —

معاهد أعمال جالســـة كالجبابرة تحت اجنحة النوم . مساجد أقوال تحوم حولها أرواح صـارخة صراخ القنوط ، مترنمة ترنيمة الامل . هيا كل أديان اقامها اليقين ثم هدمهـا الشك ، مآذن أفـكار مرتفعة نحو العلو كأنها أيدى المتسولين ، شوارع أميال منبسطة انبسـاط النهر بين الربى . مخازن أسرار حرسها الـكتمان فسرقتها لصوص الاستعلام . ابراج

اقدام بنتها الشجاعة فثلنها المخاوف. صروح أحلام زينتها الليالى وخربتها اليقظة . أكواخ صغار سكنها الضعف ، وجوامع وحدة قام فيها نكران الذات . نوادى معارف أنارها العقل فاظلمها الجهل . حانات محبة سكر بها العشاق فاستهزأ بهم الخلو . مراسح أعمار مثلت عليها الحياة رواياتها ثم جاء الموت وختم مأساته

تلك مدينة الماضى فهى بعيدة قريبة — منظورة محجوبة

ومشت أمامى الحياة وقالت : اتبعنى فقد طال بنا الوقوف قلت : إلى أين أيتها الحياة ؟ قالت : إلى مدينة المستقبل . قلت : رفقاً فقد انهكنى المسير وكلمت أقدامى الصخور وهدّت قواى العقبات . قالت : سر فالوقوف جبانة والنظر إلى مدينة الماضى جهالة

اللقــاء

* * *

عند ما أكمل الليــل تنميق ثوب السماء بجواهر النجوم، تصاعدت من وادى النيل حورية محفوفة بأجنحة غير منظورة. وجلست على عرش من الغيوم مرتفع فوق بحر الروم مفضض من أشـــعة القمر . فمرَّ من أمامها جوق أرواح سـابحة فى الفضاء صارخة : « قدوس ، قدوس ، قدوس ابنة مصر مجدها ملء كل الارض »

وتصاعد من أعالى فم ميزاب المحيط بغابة الأرز طيف فتىً مكتنفاً بأيادى الســاروفيم وجلس على العرش بقرب الحورية فعـادت الأرواح ومرَّت من أمامها هاتفة : « قدوس ، قدوس ، قدوس فتى لبنان مجده ملء كل الدهور »

ولما أخذ المحب يد حبيبته ونظر إلى عينيها حملت الأرياح والأمواج هذه المناجاة إلىجميع الأقطار :

« ما أكمل بهاءك يا ابنة ايسس وما أعظم حبى لك »

« ما أجملك بين الفتيان يا ابن عشتروت وما أكثر شوقي اليك »

« محبتي نظير اهرامك فلا تهدمها الاجيال يا حبيبتي »

« محبتي تحاكي أرزك فلن تغلبها العناصر يا حبيبي »

« حكماء الامم يأتون من المشرق والمغرب ليستحكموا حكمتك ويستفسروا رموزكِ يا حبيبتي »

« عظماء الارض يجيئون من الممالك ليسكروا من رحيق جمالك وسحر معانيك يا حبيبي »

« ان راحتيكِ منبت خيرات غزيرة تملأ الاهراء يا حبيبتي »

« ان ذراعيك منبع المياه العذبة ، وأنفاسك نسيمات منعشة يا حبيبي »

« قصور النيل وهياكله تذيع مجدكِ وأبو الهول يحدث بعظمتك يا حبيبتي »

« الأرز على صدرك وسام شرف أثيل، والابراج حولك تروي بعزتك وبقدرك يا حبيبي »

« آه ما أمليح محبتك وما أحيلى الآمل المناط بارتقائكِ يا حبيبتي »

« آه ما أكرمك خليلاً ، وأوفاك حليلاً ، وما أجمل هداياك وأنفس عطاياك . بعثت إليَّ بالفتيان فكانوا يقظة بعد

نوم عميق . أتحفتنى (بالفارس) فغلب ضعف قومى . وحبوتنى (بالاديب) فانهضهم (وبالنجيب) فانملهم ... »

« بعثت اليكِ بالبذور فصيرتها أزهاراً ، وبالانصاب فجعلتها اشجاراً ، فانتِ حقل بكر يحي الورد والسوسن ويرفع السرو والأرز .... »

« أرى بعينيك حزناً يا حبيبي — أتحزن وأنت بقربى ؟ »

« لى أبناء رحلوا إلى ما وراء البحار وخلفونى حليف بكاء وأليف شوق »

« ليت لى ما يشابه حزنك وتنصرف عنى مخاوفى ياحبيبى »

« أتخافين يا ابنة النيل وأنتِ عزيزة الأمم ؟ »

« أخاف من طاغية تقترب منى بحلاوة روغها وتمتلك أعنتى بقوة ساعديها »

« ان حياة الامم يا حبيبتى مثل حياة الافراد . حياة يؤاخيها الامل ، ويقارنها الخوف ، وتحف بها الامانى ، ويرمقها القنوط »

وتعانق الحبيبان وشربا من كؤوس القبل رحيقاً عاطراً ، فمرت أجواق الارواح منشــدة : قدوس ، قدوس ، قدوس المحبة مجدها ملء السماء والأرض

مخبآت الصدور

فى صرح فخم واقف تحت جنح الليل وقرف الحياة بين ستائر الموت جلست صبية بقرب منضدة عاجية تسند رأسها الجميل بيدها ، مثلما تتكىء زنبقة ذابلة على أوراقها وتنظر الى ما حولها نظرات سجين يائس يريد أن يخرق بعينيه جدران حبسه ليرى الحياة السائرة فى موكب الحرية

مرّت الساعات مرور أشباح الظلمة . وتلك الصبية مستأنسة بدموعها ، مستأمنة بانفرادها ولوعتها ، حتى اذا ما اشتدت على قلبها وطأة عواطفها ، وامتلكت شواعرها خزائن أسرارها تناولت قلماً وأخذت تمزج على صفحات الورق قطرات الحبر بدموعها وتجمع بين الكلام ومكنونات نفسها . وهاك ما كتبت :

« أيتها الأخت المحبوبة !

عند ما يضيق القلب بأسراره وتتقرح الاجفان من حرارة دموعها ، وتكاد الضلوع تتمزق من نمو مخبآت الصدور

لا يجـــد المرء غير الـكلام والشكوى . فالحزين ياصديقى يستعذب الشكوى . يجد المحب تعزية بالتشبب ، والمظلوم لذة بالاسترحام .. فانا أكتب اليكِ الآن لانني أصبحت كشاعر يرى جمال الاشياء فينظم تأثيرات ذلك الجمـــال محكوماً بقوة ألوهيته . أو كالطفل الفقير الجائع يستغيث مدفوعاً بمرارة جوعه غير راحم فاقة أمه وانـكسارها

اسمعى قصتى الموجعة يا أختى وابكى من أجلي ، لان البكاء كالصلاة ، ودموع الشفقة كالاحسان لا تذهب سـدى ، لانها متصاعدة من أعماق نفس حيـة شاعرة ... شاء والدى وجمع بالقران بينى و بين رجل شريف غنى شأن كل والد غنى شريف يروم تعزيز المال بالمال مخافة الفقر وضم الشرف الى الشرف هرباً من ذل الايام . فـكنت مع عواطفى وأحلامى ضحية على مذبح ذهب أحتقره وشرف موروث اكرهه ، وفريسة ترتعد بين أظافر المادة التى اذا لم تـكن خادمـة مطيعة للروح كانت أقسى من الموت وأمرّ من الهاوية . أنا أعتبر بعلي ، لانه كريم الخلق ، شريف القلب ، يجهد النفس فى سبيل سعادتى ، ويبذل المال لرضاى ، لـكننى وجدت تأثير هذه الاشياء كلها لا يساوى دقيقة محبـة حقيقية مقدسة . تلك المحبة التى تستصغر كل شيء وتبقى عظيمة .. لا تسخرى بى يا رفيقتى ، فانا الآن أعلم الناس بحاجات قلب المرأة — هـذا القلب الخفوق — هـذا

الطائر السابح فى فضاء المحبة — هــــذا الاناء الطافح من خمرة الدهور المعـدة لمراشف الارواح — هذا الكتاب المطبوعـة فيه فصول السعادة والشقاء، واللذة والألم، والمسرَّة والاحزان، فلا يقرأه إلا الرفيق الحقيقى نصف المرأة المخلوق لها منــــذ الأزل والى الأبد ... نعم صرت أدرى النساء بأغراض النفس وأميال القلب عند ما وجدت أن خيول بعلي المطهمة ومركباته البديعه وخزائنه الطافحة وشرفه الرفيع لا تساوى نظرة واحدة من عيون ذلك الفتى الفقير الذى جاء هذه الحياة من أجلي وجئت من أجله، ذلك الصابر على مضض البلوى وذل التفريق، ذلك المظلوم عفواً بارادة والدى، والمسجون بلا إثم فى ظلمة العمر . . اياك ياصديقتى محاولة تعزيتى. لان لى من مصائبي معززة هى ادراكى قوة حبي، ومعرفتي شرف شوقى وحنينى، فانا أنظر الآن من وراء الدموع فأرى المنية تقترب منى يوماً فيوماً لتقودني الى حيث أنتظر رفيق نفسى وألتقى به وأعانقه عناقاً طويلاً مقدساً. ولا تلوميني فانا قائمة بواجبات الزوجة الأمينة، خاضعة لاحكام الشرائع البشرية بتجلد وهدوء، أكرم بعلي بصاقلتي، وأعتبره بقلبي، وأجـــله بنفسى، ولا يمكنني أن أهبه قلبي. لان الله اعطاها الى حبيبى قبـل معرفتى

حبيبي . شاءت السماء لحكمة خفية ان أصرف العمر مع رجل خلقت لغيره فانا أنفق هذا العمر حسب مشيئة السماء بسكينة ، ولكن اذا ما انفتحت أبواب الأبدية التحمت بنصف نفسى الجميل ونظرت الى الماضى — وذاك الماضى هو هذا الآن — نظرة الربيع الى الشتاء . وتأملت فى حياتى هذه ، مثلما يتأمل فى العقبات من بلغ قمة الجبل »

هنا وقفت تلك الصبية عن الكتابة . وحجبت وجهها بيديها . وبكت بكاءً مرًّا . كأن نفسها الكبيرة أبت ان تسلم أقدس أسرارها الى الورق . فأعطتها الى دموع سخينة تجف بسرعة وتمتزج بالاثير اللطيف موطن أنفاس المحبين وارواح الازهار . وبعد هنيهة أخذت القلم وكتبت - « هل تذكرين ياصديقتى ذلك الفتى ؟ هل تذكرين تلك الاشعة المنبعثة من عينيه وتلك الأحزان المرسومة على جبينه ؟ هل تذكرين ابتسامه المشابه دموع الثكلى ؟ هل تذكرين صوته المحاكى صدى الوادى البعيد ؟ هل تذكرينه إذ كان يتأمل فى الاشياء بنظرات طويلة هادئة ، ثم يتكلم عنها بغرابة . ثم يحنى رأسه و يتنهد كأنه يخاف ان يشف حديثه عن خفايا قلبه الكبير ؟ وهل تذكرين أحلامه وعقائده ؟ هل تذكرين كل هذه الاشياء

فى فتى يحسبه البشر من البشر و يحتقره والدى لانه أسمى من المطامع الترابية وأشرف من ان يرث الشرف عن الجدود ؟ إى يا أختى أنتِ تعلمين انى شهيدة صغائر هذا العالم وضحية الغباوة و ترحمين أختاً ساهرة فى سكينة الليل المخيف لتكشف لكِ ستائر صدرها عن أسرار قلبها . أنتِ ترحمين لان الحب قد زار قلبك »

جاء الصباح فقامت تلك الصبية واستسلمت للكرى علها تجد فيه أحلاماً ألطف من أحلام اليقظة . . . .



القوة العمياء

*

جاء الربيع وتكلمت الطبيعة بألسنة السواقي ففرّحت القلب . وابتسمت بشفاه الازهار فاسعدت النفس . ثم غضبت ودكت المدينة الجميلة فانست الانسان عذوبة كلماتها ورقة ابتساماتها . قوة عمياء مخيفة نقضت بساعة ما أقامته الاجيال . موت ظلوم قبض باظافره المحددة على الاعناق فسحقها بقساوة . نار آكلة التهمت الارزاق والاعمار ليل قاتم أخفى جمال الحياة تحت لحف الرماد . عناصر هائلة هبت من مرابضها وقاتلت الانسان الضعيف وخربت مساكنه وذرت بسرعة ما جمعه بالتأني . زلزال عنيف حبلت به الارض فتمخضت متوجعة ولم تلد غير الخراب والشقاء

جرى كل ذلك والنفس الحزينة ناظرة من بعيد تتأمل وتتألم . تتأمل بمقدرة الانسان المحدودة تجاه القوى غير العاقلة وتتألم مع المصابين الهاربين من النار والدمار . تتأمل باعداء ابن آدم الكامنة له تحت اطباق الثرى وبين دقائق الاثير ،

وتتألم مع الوالدات النائحات والاطفال الجائعين . تتأمل بقساوة المادة واستصغارها الحياة العزيزة ، وتتألم مع الذين رقدوا بالامس مستأمنين فى منازلهم فاصبحوا اليوم واقفين عن بعد يرثون المدينة الجميلة بغصات مؤلمة وعبرات مرة . تتأمل بكيفية انقلاب الامل يأساً ، والفرح حزناً ، والراحة عذاباً ، وتتألم مع قلوب ترتعد بين مخالب اليأس والحزن والعذاب

كذا وقفت النفس بين التأمل والتألم تنقاد تارة إلى الشك بعدالة النواميس الرابطة القوات بعضها دون الآخر ، وتعود طوراً فتهمس فى آذان السكينة قائلة : أن من وراء الكائنات حكمة سرمدية تبتدع من كوارث ونوازل نراها محاسن نتائج لا نراها . فالنار والزلازل والعواصف من جسم الارض بمكان البغض والحقد والشر فى القلب البشرى تثور وتضج ثم تخمد ومن ثورتها وضجيجها وخمودها تبتدع الآلهة معرفة جميلة يبتاعها الانسان بدمعه ودمه وأرزاقه

أوقفتنى الذكرى ونكبة هذه الامة تملأ الاسماع أنة وعويلا ، وصوّرت أمام عينيّ كل ما مر على مرسح الايام الغابرة من العبر والخطوب . فرأيت الانسان فى كل ادواره يقيم على صدر الارض البروج والقصور والهياكل ، والارض ترجعها إلى قلبها . رأيت الاشداء يشيدون المبانى القوية ، والنحاتين يختلقون من الصخور صوراً واشباحاً ، والرسامين

تزينون الجدران والمداخل بالنقوش والنسيج . ثم رأيت هذه اليابسة تفغر فاها وتبتلع بخشـــونة ما الفته الايادى المتفننة والعقول الراجحة ، ماحية بقساوتها ظواهر الصور والاشباح، مدمرة بسخطها خطوط الرسوم والنقوش ، دافنة بعنفها فخامة الدعائم والجدران ؛ ممثلة دور حسناء مســـتغنية عن الحلى التى يصيغها ابن آدم ، مستكفية بحلل المروج الخضراء المزركشة بذهب الرمال وجواهر الحصى . . .

على انى وجدت بين هذه النكبات المخيفة والرزايا الهائلة ألوهية الانسان واقفة كالجبار تسخر بحماقه الارض وغضب العناصر، ومثل عمود نور منتصبة بين خرائب بابل ونينوى وتدمر وبمباى وسان فرنسيسكو ترتل أنشودة الخلود قائلة : لتأخذ الارض ما لها! فلا نهاية لى



منيتان

***

فى سكينة الليل هبط الموت من لدن الله نحو المدينة النائمة واستقر على أعلى مأذنة فيها وخرق بعينيه النيرتين جدران المساكن ورأى الأرواح المحمولة على أجنحة الاحلام والاجساد المحكومة بمفاعيل الكرى

ولما توارى القمر وراء الشفق وتوشحت المدينة بنقاب الخيال سار الموت بقدم هادئة بين المساكن حتى بلغ صرح القوى الغنى . فدخل ولم تصده الحواجز ، ووقف جنب سريره ثم لمس جبينه فانذعر من غفلته ، ولما رأى خيال الموت أمامه صرخ بصوت تجسمت فيه عوامل الحنق والخوف وقال : ابعد عنى أيها الحلم المخيف . اذهب أيها الخيال الشرير . كيف دخلت أيها السارق وماذا تريد أيها الخاطف ؟ اذهب فانا رب البيت اذهب وإلا ناديت العبيد والحراس فيمزقونك إرَباً

حينئذ اقترب الموت وبصوت يحاكى الرعد قال : « أنا هو الموت فانتبه واعتبر ! » فأجاب القوى الموسر : « ماذا تريد منى

الآن وماذا تطلب ؟ لماذا جئت وأنا لم أنه أعمالى بعد ؟ ماذا تطلب من الأقوياء نظيرى ، اذهب إلى السقماء . اغرب عنى ولا ترني أظافرك الجارحة و شعرك المسدول كالأفاعى . رُح فقد سئمت النظر إلى جناحيك الهائلين وجسدك البالى » وبعد سكينة مزعجة زاد « لا لا أيها الموت الرؤوف — لا تحفل بما قلته ، فالخوف يوحى ما يحرِّمه القلب — خذ مكيالا من ذهبى أو قبضة من أرواح عبيدى واتركنى وشأنى ... لى يا موت مع الحياة حساب لم أنهه ومع الناس مال لم أستوفه . لى بين أمواج البحر مراكب لم تصل إلى الساحل ، وفى قلب الارض غلة لم تنبت . خذ ما شئت من هذه الاشياء واتركنى — لى جوارٍ كالصباح جمالاً فاختر منهن ما تريد — اسمع أيها الموت : لى وحيد أحبه وهو عقدة آمالى ، خذه واتركنى خذ ما تشاء . خذ كل شيء واتركنى »

حينئذ وضع الموت يده على فم عبد الحياة الترابية وأخذ حقيقته وأعطاها للهواء

سار الموت بين أحياءِ الفقراء الضعفاء حتى بلغ بيتاً حقيراً فدخله واقترب من سرير عليه فتىً فى ربيع العمر ، وبعد أن تأمل فى وجهه الهادىء لمس عينيه فاستيقظ ولما رأى الموت واقفاً بجانبه جثا على ركبتيه ورفع ذراعيه نحوه وقال بصوت

اودعه كلما فى نفسه من المحبة والشوق : « ها أنذا أيهـا الموت الجميل — اقتبل نفسى يا حقيقة أحلامى وموضـــوع آمالى ! ضمنى يا حبيب نفسى ، فانت رحوم لا تتركـكنى هنا . أنت رسول الآلهة . أنت يمين الحق ، فلا تتخلّ عنى — كم طلبتك ولم أجدك ، وكم ناديتك ولم تسمع — قد سمعتنى الآن ، فلا تقابل شغفى بالصدود — عانق نفسى يا حبيبى الموت »

وضع الموت إذ ذاك اناءله اللطيفة على شفتى الفتى وأخذ حقيقته ووضعها تحت جنحيه

ولما حلق الموت فى الجو نظر نحو هـــذا العالم ونفخ فى الهواء هذه الـكلمات : « لن يرجع الى الابدية الا من جاء من الابدية »



على ملعب الدهر

* * *

ودقيقة تتراوح بين تأثيرات الجمال وأحلام الحب لهى أسمى وأثمن من جيل ملأه المجد الذى يمنحه الضعيف المسكين للقوى الطامع

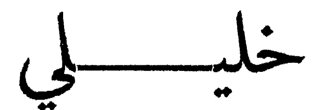
من تلك الدقيقة تنبثق ألوهية الانسان ، وفى ذاك الجيل تنام نوماً عميقاً مكتنفة ببراقع أحلام مزعجة . فى تلك الدقيقة تتحرر النفس من اعباء شرائع الانسان المتباينة ، وفى ذاك الجيل تحبس وراء جدران الاهمال مثقلة بقيود الظلم . تلك الدقيقة كانت مهد نشيد سليمان وموعظة الجبل وتائية الفارض، وذاك الجيل كان القوة العمياء التى هدمت هيا كل بعلبك ودكت مبانى تدمر وسحقت بروج بابل

ويوم صرفته النفس آسفة على موت حقوق الفقير ، متأوهة على فقدان العدل لهو أجلّ وأفضل من عمر يضيعه الانسان مسروراً على مائدة الشهوات ، مستسلماً لقضاء الانانية . ذاك يوم يطهر القلب بناره ويغمره بنوره ، وذا عمر يخيم عليه

بجنحه القتم ويلحده طى طبقات التراب ذاك يوم كان يوم العـــبر ، ويوم الجلجلة ، ويوم الهجرة ، وذا عمر انفقه نيرون فى سوق المظالم ووقفه قارون على مذبح المطامع وطمره دون جوان فى قبر الجسديات

وهذه هى الحياة ـ تمثلها الليـــالى على ملعب الدهر نظير مأساة ، وتنشدها الايام كأغنية ، وفى النهاية تحفظها الأبدية كجوهرة ...





* * *

لو علمت ، يا خليلي الفقير ، أن الفاقة التى تقضى عليك بالشـقاء هى هى التى توحى اليك معرفة العدل وتبثك ادراك كنه الحياة ، لرضيت بقسمة الله . قلت : معرفة العـدل لان الغنى مشغول عن تلك المعرفة بخزائنه . وقلت : كنه الحيـاة ، لان القوى منصرف عنها إلى المجد فافرح اذن بالعدل ، لانك لسـانه ، وبالحياة ، لانك كتابها . وابتهج فانت مصـدر فضيلة عاضديك وعاضد فضيلة الآخذين بيدك

ولو دريت يا حبيبي الحزين أن الارزاء التى أصـبحت مغلوبهـا هى تلك القوة التى تنير القلب وترفع النفس من دركات الاسـتهزاء إلى درجات الاعتبار لقنعت بها ارثاً وبتأثيراتها مهذباً ، وعلمتَ أن الحياة سلسـلة ذات حلقات آخذة بعضها برقاب البعض ، وان الحزن حلقة ذهبية تفصل

بين الاستسلام لمآتى الحاضر والتعلل ببهجة الآتي ، كما يفصل الصبح بين النوم واليقظة

خليلي — أن الفقر يظهر شرف النفس ، والغنى يبيــين لؤمها ، والحزن يلطف العواطف ، والسرور يدملهــا ، لأن الانســان ما برح يستخدم المال والسرور توصلا للازدياد ، مثلما يفعــــل باسم الكتاب شراً ينزه عنه الكتاب ، وباسم الانسانيه ما تأباه الأنسانية

لو باد الفقر ونأى الحزن لأصــــبحت النفس صحيفة خالية الا من أرقام تدل على الأنانية ومحبة الأ ثــار وألفاظ مفادها الشـــهوات الترابية ، لاني نظرت فوجدت الالوهية ، وهى الذات المعنوية فى الانســان ، لا تباع بالمال ولا تنمو بمسرات فتيـــان العصر ، وتأملت . فرأيت الغنى ينبذ الوهيته ويحرص على أمواله ، وفتى العصر يغادرها ويتبع ملذاته

أن الســاعة التى تصرفها ، أيها الفقـــير ، مع رفيقتك وصغارك بعد مجيئك من الحقل هى رمز العــائلة البشرية المستقبلة — هى عنوان سعادة الاجيال الآتية ، والحيــاة التى يصرفها المثرى بين الخزائن هى حياة دنية تحاكى حياة الدود فى القبور ـــ هى رمز الخوف

والدموع التى تذريها ، أيها الحزين ، هى أعذب من

ضحك المتناسي وأحلى من قهقهة المستهزىء . تلك دموع تغسل القلب من ادران البغض وتعلم ذارفها كيف يشارك منكسرى القلب بشواعره — هى دموع الناصرى

أن القوة التي زرعتها ، أيها الفقير ، واستغلها الغنى القوى سوف تعود اليك ، لأن الاشياء ترجع إلى مصـــادرها بحكم الطبيعـــة . والاسى الذى عانيته ، أيها الحزين ، ينقلب فرحاً بحكم السماء

سوف تتعلم الاجيـال الآتية المساواة من الفقر ، والمحبة من الاحزان



حديث الحب

☆ ☆ ☆

فى بيت منفرد جلس فتىً فى صبح الحيـاة ينظر آناً من النافذة الى السماء المزدانة بالكواكب ، وآونة الى رسم صبية بين يديه . رسم تنعكس خطوطه وألوانه على وجهه ، فتظهر علته أسرار هذا العـالم وخفايا الابدية . صورة ملامح امرأة تناجيه جاعلة عينيه آذاناً تفقه لغة الأرواح السـابحة فى فضـاءِ تلك الغرفة ومبتـدعة من مجموعه قلوباً أنارها الحب وأفعمها الشوق

كذا مرت ساعة ، كأنها دقيقة أحلام مستحبة أو عام من حيـاة البقاء ، ثم وضع الفتى الرسم أمامه وأخذ قلماً وورقة وكتب :

« يا حبيبة نفسى !

ان الحقائق العظيمة الفائقة الطبيعة لا تنتقل من بشرىٍّ إلى آخر بواســطة الكلام البشرى المتعارف . لكنها تختار

السكينة سبيلاً بين النفوس . وأنا أشعر بأن سكينة هذا الليل تسعى بين نفسينا حاملة رسائل أرق من تلك التى يكتبها النسيم على وجه الماء ، تالية كتاب قلبينا على قلبينا — ولكن مثلما شاء الله وجعل النفوس فى أسر الاجسام شاء الحب وجعلى أسير الكلام .... يقولون يا حبيبتى ان الحب ينقلب بالعباد ناراً آكلة. وأنا وجدت أن ساعة الفراق لم تقوَ على فصل ذاتينا المعنويتين ، مثلما علمت عند أول لقاء أن نفسى تعرفكِ منذ دهور ، وان أول نظرة اليك لم تكن بالحقيقة أول نظرة .... يا حبيبتى ان تلك الساعة التى جمعت قلبينا المنفيين عن العالم العلوى هى من ساعات قليلة تدعم اعتقادى بأزلية النفس وخلودها — فى مثل تلك الساعة تكشف الطبيعة القناع عن وجه عدلها المتناهى والمظنون به ظلماً . . .

هل تذكرين يا حبيبتى ذاك الروض ، حيث وقفنا وكلانا ناظر وجه حبيبه ؟ وهل تعلمين أن نظراتك كانت تقول لى أن محبتك لى لم تنبثق من الشفقة عليّ ؟ تلك النظرات التى علمتنى أن أقول لذاتى وللعالمين ان العطاء الذى يكون مصدره العدل لهو أعظم من الذى يبتدىء من الحسنة ؟ وان المحبة التى تبتدعها الظروف تشابه مياه المستنقعات

أمامى ياحبيبتى حياة أريدها أن تكون عظيمة وجميلة. حياة تؤاخى ذكرى الانسان الآتى وتستدعى اعتباره ومحبته. حياة قد ابتدأت عندما لقيتك وأنا واثق بخلودها، لانى مؤمن بكونك قادرة على اظهار القوة التى أودعنى الله إياها متجسمة بأقوال وأعمال كبيرة، مثلما تستنبت الشمس أزهار الحقل ذات العرف الطيب، وكذا تظل محبتى لى وللاجيال، وتبقى منزهة عن الانانية لتعميمها، ومتعالية عن الابتذال لتخصيصها بك»

وقام الفتى ومشى بتمهل فى تلك الغرفة ثم نظر من النافذة ورأى القمر قد طلع من وراء الافق وملأ الفضاء أشعة لطيفة فرجع وكتب فى تلك الرسالة:

« سامحينى يا حبيبتى فقد ناجيتك بضمير المخاطب وأنت نصفى الجميل الذى فقدته عند ما خرجنا من يد الله فى آن واحد — سامحينى ياحبيبتى »



الحيوان الأبكم

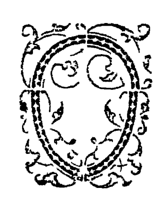
« وفي نظرات الحيوان الأبكم كلام تفهمه نفس الحكيم »
(شاعر هندي)

فى عشية يوم تغلبت فيه تخيلاتي على عاقلتى مررت بأطراف أحياء المدينة ووقفت أمام منزل مهجور تداعت أركانه وحطت دعائمه ولم يبق منه سوى أثر يخبر عن هجر طويل ويدل على زوال محزن . فرأيت كلباً يتوسد الرماد وقد ملأت القروح جسمه الضعيف واستحكمت العلل بهيكله المهزول ، فصار يرمق الشمس الجانحة نحو الغروب بعين وسمت عليها أشباح الذل وبدت فيها مظاهر القنوط واليأس ، فكأنه درى أن الشمس قد أخذت تسترجع حرارة أنفاسها عن تلك البقعة المهجورة البعيدة عن الأولاد مضطهدي الحيوان الضعيف . فصار يرمقها بعين آسفة مودّعة . فاقتربت منه على مهل واذا لو عرفت النطق بلسانه فأعزيه فى شدائده وأبدى له شفقة فى بؤسه ، ولما دنوت منه خافني وتحرك ببقايا حياة قاربت الانحلال مستنجداً بقوائم شلتها العلة وراقبها الفناء . وإذ لم يقوَ

على النهوض نظر إليَّ نظرة فيها مرارة استرحام وحلاوة استعطاف ـ نظرة فيها انعطاف وملامة ـ نظرة قامت مقام النطق ، فكانت أفصح من لسان الانسان وأبلغ من دموع المرأة. ولما تلاقت عيناى بعينيه الحزينتين تحركت عواطفى وتمايلت تأثيراتي فجسمت تلك النظرات وابتدعت لها أجساداً من كلام متعارف بين البشر . نظرات مفادها : « كفى ما بى يا هذا . وكفى ما عانيت من اضطهاد الناس ، وما قاسيت من ألم الأمراض . إمضِ واتركنى وسكينتى أستمد من حرارة الشمس دقائق الحياة فقد هربت من مظالم ابن آدم وقسوته والتجأت إلى رماد أكثر نعومة من قلبه واختبأت بين خرائب أقل وحشة من نفسه . اذهب عنى ، فما أنت إلا من سكان أرض ما برحت ناقصة الأحكام ، خالية من العدل . . . أنا حيوان حقير ، لكننى خدمت ابن آدم وكنت فى منزله مخلصاً ووفياً ، وفى رفقته متربصاً وجاسوساً . كنت شريكاً فى أحزانه ومغبوطاً فى أفراحه ، متذكراً أيام بعده ، مترحباً عند مجيئه . وكنت أكتفى بفتات مائدته وأسعد بعظم جرّده بأضراسه . ولكن لما شخت وهرمت وانشبت الأمراض فى جسمى أظافرها نبذنى وأبعدنى عن داره وصيرني ملعبة لصبيان الازقة القساة ، وهدفاً لنبال العالم ، ومحطاً لرحال الاقذار . أنا ، يا ابن آدم ، حيوان ضعيف ، لكنى وجدت نسبة كائنة بينى وبين

الكثيرين من اخوانك البشر ، الذين ، إذا ما ضعفت قواهم ، قلَّ رزقهم وساءَ حالهم . أنا مثل جنود يحاربون عن الوطن فى شبيبتهم ويستثمرون الارض فى كهولتهم ، حتى إذا ما جاء شتاء الحياة وقل نفعهم أبعدوهم ونسوهم . أنا مثل امرأة تجملت صبية لتفرح قلب الشبيبة ، وسهرت زوجة فى الليالى لتربية الاطفال ، وتعبت امرأة لايجاد رجال المستقبل ، ولكن لما شاخت وعجزت أصبحت نسياً منسياً وأمراً مكروهاً . . آه ما أظلمك يا ابن آدم وما أقساك ! »

كانت نظرات ذلك الحيوان تتكلم وقلبي يفهم ونفسى تتراوح بين شفقتى عليه وتصوراتي بأبناء جلدتى . ولما اغمض عينيه لم أشأ ازعاجه . فذهبت . . .



السلم

* * *

سكنت العاصفة بعد ان لوت الاغصان وأحنت الزروع وبانت النجوم كأنها بقايا البرق المتكسرة على اديم السماء، وسكنت تلك الحقول، كأن حرب العناصر لم تكن

فى تلك الساعة دخلت الصبية مرقدها وجثت على سريرها وبكت بكاءً مراً ثم تصاعدت زفراتها وتجسمت انفاسها الحارة بهذه الكلمات : « رده الىَّ يا رب ، فقد جفت دموعى وذابت حشاشتي . أرجعه أيها الروح القاضى بحكمة تسمو عن نهى الانسان ، فقد جفاني التجلد وتحكم بى الاسى . خلصه من بين مخالب الحرب المحددة — أنقذه من الموت القاسى وارحمه فتىً ضعيفاً جنت عليه قوة القوى فسلبني اياه — تغلبي أيتها المحبة على عدوتك الحرب وخلصي حبيبى فهو من ابنائك — إبتعد عنه أيها الموت ودعه يرنى أو تعال وخذني اليه »

فى تلك الدقيقة دخل فتى تضم رأسه عصائب بيضاء كتبت عليها الهيجاء أحرفاً قرمزية واقترب من الصبية وحياها بدمعة

وابتسامة ثم أخذ يدها ووضعها على شفتيه الملتهبتين ، وبصوت تآلفت فيه عوامل الحب الجارح ومفاعيل اللقاء المفرح قال : « لا تجفلي فقد أتى من تبكين من أجله — افرحى فقد أعاد اليك السلم من سرقه الحرب وأرجع اليك فتى الانسانية ما سلبه ابن المطامع . كفكفى الدمع يا حبيبتى وابتسمى ، لأن للشعوب ايمة ترحم متى عمت قساوة ايمة الشعوب — لاتعجبى من اياى حياً ، فللحب وسم يراه الموت فينصرف ، ويتوسمه العدو فيتقهقر — أنا هو ، فلا تحسبينى خيالاً جاء من مرتع المنايا ليزور مربعاً يسكنه جمالك والسكون . لا تخافى فانا حقيقة سلمت من بين الاسنة والنار لتخبر الناس بغلبة الحب على الحرب — أنا كلمة لفظها رجل السلم لتكون توطئة لرواية سعادتك »

انعقد اللسان إذ ذاك وناب الدمع عن الكلام وحامت ملائكة السرور حول ذلك الكوخ الحقير واسترجع القلبان ما فقداه عند الوداع

ولما جاء الصباح وقف الاثنان فى وسط الحقل يتأملان فى جمال الطبيعة ، وبعد سكينة فيها من الاحاديث ما فيها نظر الجندى نحو المشرق الاقصى وقال لحبيبته : « انظرى الشمس طالعة من الظلمة »

الشـــــاعر

☆ ☆ ☆

حلقة توصل بين هذا العالم والآتي . منهل عذب تستقى منه النفوس العاطشه . شجرة مغروسة على ضفة نهر الجمال ذات ثمار يانعه تطلبها القلوب الجائعة . بلبل يتنقل على اغصان الكلام وينشد انغاماً تملأ خلايا الجوارح لطفاً ورقة . غيمة بيضاء تظهر فوق خط الشفق ثم تتعاظم وتتصاعد وتملأ وجه السماء وتنسكب لتروى أزهار حقل الحياة . ملك بعثته الالهة ليعلم الناس الالهيات . نور ساطع لا تغلبه ظلمة ولا يخفيه مكيال ملأته زيتاً عشتروت الهة الحب وأشعله أبولون اله الموسيقى

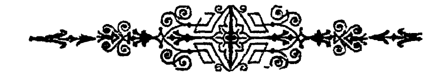
وحيد يرتدى البساطة ويتغذى اللطف ويجلس على أحضان الطبيعة ليتعلم الابتداع ويسهر فى سكينة الليل منتظراً هبوط الروح . زراع يبذر حبات قلبه فى رياض الشواعر . فتنبت زرعا خصيبا تستغله الانسانيه وتتغذى به

هذا هو الشاعر الذى تجهله الناس فى حياته وتعرفه عند ما

يودع هذا العالم ويعود إلى موطنه العلوى. هذا الذى لا يطلب من البشر الا ابتسامة صغيرة والذى تتصاعد أنفاسه وتملأ الفضاء أشباحاً حية جميلة والناس تبخل عليه بالخبز والمأوى

فالى متى أيها الانسان ـ إلى متى يا أيها الكون تقيم من الفخر بيوتا للألى جبلوا اديم التراب بالدماء وتعرض بتهامل عن الذين يهبونك من محاسن أنفسهم سلاماً ووداعة ؟ وحتى مَ تعظم القتلة والذين أحنوا الرقاب بنير الاستعباد وتتناسى رجالا يسكبون نور الاحداق فى ظلمة الليل ليعلموك أن ترى بهاء النهار ويصرفون العمر بين مخالب الشقاء كيلا تفوتك لذة السعادة

وأنتم يا أيها الشعراء ، يا حياة هذه الحياة ، قد تغلبتم على الأجيال قسراً عن قساوة الاجيال وفزتم باكليل الغار غصبا عن أشواك الغرور وملكتم فى القلوب وليس لملككم نهاية وانقضاء ، يا أيها الشعراء



يوم مولدي

☆ ☆ ☆

كتبت فى باريس فى ٦ كانون الاول (دسمبر) سنة ١٩٠٨

فى مثل هذا اليوم ولدتنى أمى

فى مثل هذا اليوم ، منذ خمس وعشرين سنة . وضعتنى السكينة بين أيدى هذا الوجود المملوء بالصراخ والنزاع والعراك

ها قد سرت خمساً وعشرين مرة حول الشمس ، ولا أدرى كم مرة سار القمر حولى ، لكنني لم أدرك بعد أسرار النور ، ولا عرفت خفايا الظلام

قد سرت خمساً وعشرين مرة مع الارض والقمر والشمس والكواكب حول الناموس الكلى الاعلى . ولكن هوذا نفسى تهمس الآن أسماء ذلك الناموس مثلما ترجع الكهوف صدى أمواج البحر . فهى كائنة بكيانه ، ولا تعلم ماهيته . وتترنم باغاني مده وجزره ، ولا تستطيع ادراكه

منذ خمس وعشرين سنة خطتنى يد الزمان كلمة فى كتاب

هذا العالم الغريب الهائل . وهاءنذا كلمة مبهمة، ملتبسة المعانى، ترمز تارة إلى لا شىء ، وطوراً إلى أشياء كثيرة

أن التأملات والافكار والتذكارات تتزاحم على نفسى فى مثل هذا اليوم من كل سنة ، وتوقف أمامى مواكب الأيام الغابرة ، وتريني أشباح الليالى الماضية ، ثم تبددها كما تبدد الرياح بقايا الغيوم فوق خط الشفق ، فتضمحل فى زوايا غرفتى اضمحلال أناشيد السواقى فى الاودية البعيدة الخالية

فى مثل هذا اليوم من كل سنة تجيء الارواح التى رسمت روحى متراكضة نحوى من جميع أطراف العالم ، وتحيط بى مرتلة أغانى الذكرى المحزنة ، ثم تتراجع على مهل وتختفى وراء المرئيات ، كأنها أسراب من الطير هبطت على بيدر مهجور فلم تجد بذوراً تلتقطها ، فرفرفت هنيهة ثم طارت سابحة إلى مكان آخر

فى هذا اليوم تنتصب أمامى معانى حياتى الغابرة ، كأنها مرآة ضئيلة أنظر فيها طويلا فلا أرى سوى أوجه السنين الشاحبة كأوجه الاموات ، وملامح الآمال والأحلام والامانى المتجعدة كملامح الشيوخ . ثم أغمض عينى وانظر ثانية فى تلك المرآة . فلا أرى غير وجهى ، ثم أحدق بوجهى فلا أرى فيه غير الكآبة ، ثم استنطق الكآبة فاجدها خرساء

لا تتكلم ، ولو تكلمت الكآبة لكانت أكثر حلاوة من الغبطة

فى الخمس والعشرين سنة الغابرة قد أحببت كثيراً . وكثيراً ما أحببت ما يكرهه الناس وكرهت ما يستحسنونه . والذى أحببته عند ما كنت صبياً ما زلت أحبه الآن . والذى أحبه الآن سأحبه إلى نهاية الحياة ، فالمحبة هى كل ما استطيع أن احصل عليه ، ولا يقدر أحد أن يفقدنى اياه

قد أحببت الموت مرات عديدة ، فدعوته باسماء عذبة تشببت به سراً وعلناً . ولئن لم أسل الموت ولا نقضت له عهداً فانى صرت أحب الحياة أيضاً . فالموت والحياة قد تساويا عندى بالجمال ، وتضارعا باللذة ، وتشاركا بانماء شوقى وحنيني ، وتساهما محبتي وانعطافى

وقد أحببت الحرية فكانت محبتى تنمو بنمو معرفتى عبودية الناس للجور والهوان ، وتتسع باتساع ادراكى خضوعهم للاصنام المخيفة التى نحتتها الاجيال المظلمة ، ونصبتها الجهالة المستمرة ، ونعمت جوانبها ملامس شفاه العبيد ، لكننى كنت أحب هؤلاء العبيد بمحبتى الحرية ، واشفق عليهم لانهم عميان يقبلون احناك الضوارى الدامية ولا يبصرون ، ويمتصون لهاث الافاعى الخبيثة ولا يشعرون ، ويحفرون قبورهم باظافرهم ولا يعلمون . قد أحببت الحرية أكثر من كل

شيء لانني وجدتها فتاة قد أضناها الانفراد ، وانحلها الاعتزال حتى صارت خيالا شفافاً يمر بين المنازل ، ويقف فى منعطفات الشوارع ، وينادى عابرى الطريق ، فلا يسمعون ولا يلتفتون

وفى الخمس والعشرين سنة قد أحببت السعادة مثل جميع البشر ، فكنت أستيقظ كل يوم وأطلبها كما يطلبونها ، لكننى لم أجدها قط فى سبيلهم ، ولا رأيت أثر أقدامها على الرمال المحيطة بقصورهم ، ولا سمعت صدى صوتها خارجاً من نوافذ هياكلهم . ولما انفردت بطلبها سمعت نفسى تهمس فى أذنيّ قائلة : « السعادة صبية تولد وتحيا فى أعماق القلب ولن تجيء إليه من محيطه » . ولما فتحت قلبى لكى أرى السعادة وجدت هناك مرآتها وسريرها وملابسها . لكننى لم أجدها

وقد أحببت الناس ـ أحببتهم كثيراً ـ والناس فى شرعى ثلاثة : واحد يلعن الحياة ، وواحد يباركها ، وواحد يتأمل بها ، فقد أحببت الأول لتعاسته . والثانى لسماحته ، والثالث لمداركه

هكذا انقضت الخمس والعشرون سنة . وهكذا ذهبت أيامى ولياليّ متسارعة ، متتابعة ، متساقطة من حياتى . مثلما تتناثر أوراق الشجر أمام رياح الخريف

واليوم ، وقد وقفت متذكراً ، وقوف سائر متعب بلغ منتصف العقبة . أنظر إلى كل ناحية فلا أرى لماضي حياتى أثراً أستطيع أن أومىء إليه أمام وجه الشمس قائلاً : « هذا لى » ولا أجد لفصول أعوامى غلة سوى أوراق مخضبة بقطرات الحبر السوداء ، ورسوم غريبة مبعثرة مملوءة خطوطاً وألواناً متباينة متناسقة . فى هذه الاوراق المنثورة ، والرسوم المبعثرة ، قد كفنت ودفنت عواطفى وأفكارى وأحلامى ، مثلما يدفن الزراع البذور فى بطن الارض ، ولكن الزراع الذى يخرج إلى الحقل ويلقى البذور بين ثنايا التراب يعود إلى بيته فى المساء آملاً راجياً منتظراً أيام الحصاد والاستغلال ، أما أنا فقد طرحت حبات قلبي بلا أمل . ولا رجاء ، ولا انتظار

والآن . وقد بلغت هذه المرحلة من العمر . فتراءى لى الماضي من وراء ضباب التنهيد والأسى . وبان لنظرى المستقبل من وراء نقاب الماضى . أقف وأنظر إلى الوجود من خلال بلور نافذتي . وأرى وجوه الناس واسمع أصواتهم متصاعدة إلى الفضاء ، وأعى وقع أقدامهم بين المنازل . واشعر بملامس أرواحهم وتموجات أميالهم

ونبضات قلوبهم، أنظر فارى الاطفال يلعبون ويذرون التراب بعضهم فى وجوه بعض ضاحكين مقهقهين ، وأرى الفتيان يسيرون بعزم رافعين رؤوسهم كأنهم يقرأون قصيدة الشباب مكتوبة بين حواشي الغيوم المبطنة باشعة الشمس ، وأرى الصبايا يخطرن ويتثنين كالاغصان ويتبسمن كالازهار وينظرن إلى الفتيان من وراء جفون ترتعش بالميل والانعطاف ، وأرى الشيوخ يمشون على مهل محدودبي الظهور ، متوكئين على العصى ، محدقين بالارض ، كأنهم يبحثون بين دقائق التراب عن جواهر أضاعوها . اقف بجانب نافذتي وأنظر متأملا بجميع هذه الصور والاشباح الساكنة بمسيرها ، المتطايرة بدبيبها فى شوارع المدينة وأزقتها ، ثم انظر متأملا بما وراء المدينه ، فارى البرية بكل ما فيها من الجمال الرهيب ، والسكينة المتكلمة ، والتلول الباسقة ، والاودية المنخفضة ، والاشجار النامية ، والاعشاب المتمايلة ، والأزهار المعطرة ، والانهار المترنمة ، والاطيار المغردة ، ثم أنظر إلى ما وراء البرية ، فارى البحر بكل ما فى أعماقه من الغرائب والعجائب ، والمدافن والاسرار ، وما على سطحه من الامواج المزبدة ، الغضوبة ، المتسارعة ، المتهاونة ، والابخرة المتصاعدة ، المتبددة ، المتساقطة ، ثم أنظر متأملا بما وراء البحر ، فارى الفضاء غير المتناهي بكل ما فيه من العوالم السابحة ، والكواكب اللامعة ،

والشموس والاقمار ، والسيارات والثوابت ، وما بينها من الدوافع والجواذب المتسالمة ، المتنازعة ، المتولدة ، المتحولة ، المتماسكة بناموس لا حد له ولا مدى ، الخاضعة لشروع كلى ليس لبدئه ابتداء ولا لنهايته نهاية . انظر وأتأمل بجميع هذه الاشياء من خلال بلور نافذتى فانسى الخمس والعشرين وما جاء قبلها من الاجيال وما سيأتي بعدها من القرون . ويظهر لى كياني ومحيطى بكل ما أخفاه وأعلنه كذرة من تنهدة طفل ترتجف فى خلاء أزلى الاعماق ، سرمدى العلو . أبدى الحدود . لكننى أشعر بكيان هذه الذرة — هذه النفس — هذه الذات التى ادعوها « أنا » . أشعر بحرا كها . واسمع ضجيجها . فهى ترفع الآن اجنحتها نحو العلاء وتمتد يداها إلى كل ناحيـــة . وتتمايل مرتعشــة فى مثل اليوم الذى ابانها للوجـــود . وبصوت متصاعد من قدس أقداســها . تصرخ قائلة :

« سلام أيتها الحياة . سلام أيتها اليقظة . سلام أيتها الرؤيا سلام أيها النهار الغامر بنورك ظلمة الارض . وسلام أيها الليل المظهر بظلمك أنوار السماء . ســلام أيتها الفصول . سلام أيها الربيع المعيد شبيبة الارض . ســلام أيها الصيف المذيع مجد الشــمس ، سلام أيها الخريف الواهب ثمار الاتعاب وغلة الاعمال . سلام أيها الشتاء المرجع بثوراتك عزم الطبيعة . ســلام أيتها الاعوام الناشرة ما أخفتــه

الاعوام . سلام أيتها الأجيال المصلحة ما افسدته الاجيال سلام أيها الزمن السائر بنا نحو الكمال . سلام أيها الروح الضابط أعنة الحياة ، المحجوب عنا بنقاب الشمس . وسلام لك أيها القلب ، لأنك تستطيع أن تهزأ بالسلام وأنت مغمور بالدموع . وسلام لك أيتها الشفاه . لأنك تتلفظين بالسلام وأنت تذوقين طعم المرارة »



الطفل يسوع

والحب الطفل

كنت بالامس وحيداً فى هـذا العالم ياحبيبتى . وكانت الوحدة قاسية كالموت . وكنت منفرداً كالزهرة النابتة فى ظل الصخور المتعالية فلا تشعر الحياةبوجودى. ولا أنا أشعربكيان الحياة . واليوم قد استيقظت نفسى ورأتك منتصبة بقربها . فتهيبت وتهللت . ثم سجدت أمامك . مثلما فعل ذلك الراعى عند مارأى العليقة مشتعلة

كانت بالامس ملامس الهواء خشنة ياحبيبتى . وأشعة الشمس ضعيفة . وكان الضباب يستر وجه الارض وضجيج أمواج البحر يشابه الرعود القاصفة . وكنت أتلفت الى كل ناحيــة فلا أرى غير ذاتى المتوجعة واقفة بجانبى وخيالات الظلمة تهبط وتتصـاعد حولى كالغربان الجائعة . واليوم قد خف الهواء . وغمر النور الطبيعة . وسكنت

الامواج ، وانقشعت الغيوم ، فكيفما نظرت أراك وأرى أسرار الحياة محيطة بك كالهالات التى يحدثها جسم العصفور على وجه البحيرة الهادئة عند مايتحمم بمائها الهادى

كنت بالامس كلمة صامتة فى خاطر الليالى ، فأصبحت أغنية مفرحة على ألسن الايام ، وقد تم هذا كله فى دقيقة واحدة مؤلفة من نظرة وكلمة وتنهدة وقبلة . تلك الدقيقة ياحبيبتى قد جمعت بين استعدادات نفسى الغابرة وأمانيها الآتية؛ فكانت كالوردة البيضاء الخارجة من قلب الارض المظلم الى نور النهار . تلك الدقيقة هى من كل حياتى بمنزلة ميلاد يسوع من كل الاجيال لانها كانت مملوءة روحاً وطهراً ومحبة — لانها جعلت الظلمة فى أعماقى شعاعاً ، والكآبة مرحاً . والشقاء سعادة

ان شعلات المحبة ياحبيبتى تهبط من السماء متموجة بصور متباينة وأشكال متنوعة ، لكن فعلها وتأثيرها فى هذا العالم هو واحد : فالشعلة الصغيرة التى تنير خلايا قلب الانسان الفرد هى كالشعلة العظيمة المشعشعة التى تنحدر من الأعالى وتنير ظلمات الامم جميعها . لان فى النفس الواحدة عناصر وأميالا وعواطف

لاتختلف قط عن العناصر والاميال والعواطف الكائنة فى نفس العائلة البشرية

كان اليهود ياحبيبتى يترقبون مجىء عظيم موعود به منذ ابتداء الدهر ليخلصهم من عبودية الامم ، وكانت النفس الكبيرة فى اليونان ترى ان عبادة المشترى ومينرفا قد ضعفت فلم تعد تشبع الارواح من الروحيات . وكان الفكر السامى فى رومه يتأمل فيجد ان ألوهية أبولون أصبحت تتباعد عن العواطف ، وجمال فينيس الابدى قد أخذ يقترب من الشيخوخة ، وكانت الامم كلها تشعر على غير معرفة منها بمجاعة نفسية الى تعاليم مترفعة عن المادة ، وبميل عميق فى الحرية الروحية التى تعلم الانسان ان يفرح مع قريبه بنور الشمس وجمال الحياة . تلك هى الحرية الجميلة التى تخول الانسان أن يقترب من القوة غير المنظورة بلا خوف ولا وجل بعد أن يقنع الناس طراً بأنه يقترب منهم من أجل سعادتهم

كان ذلك كله من ألفى سنة ياحبيبتى عند ما كانت عواطف القلب البشرى تحوم مرفرفة حول المرئيات وتخشى الدنو من الروح الكلى الخالد ـ عند ما كان « پان » آله الاحراج يملأ

نفوس الرعاة جزعا وبعل آله الشمس يضغط بأيدى كهانه على قلوب المساكين والضعفاء

ففى ليلة واحدة ، بل فى ساعة واحدة ، بل فى لمحة واحدة تنفرد عن الاجيال ، لانها أقوى من الاجيال . انفتحت شفاه الروح ولفظت «كلمة الحياة» التى كانت فى البدء عند الروح ، فنزلت مع نور الكواكب وأشعة القمر وتجسدت وصارت طفلاً بين ذراعى ابنة من البشر ، فى مكان حقير ، حيث يحمى الرعاة مواشيهم من كواسر الليل . . . ذلك الطفل النائم على القش اليابس فى مذود البقر — ذلك الملك الجالس فوق عرش مصنوع من القلوب المثقلة بنير العبودية . والنفوس الجائعة إلى الروح ، والافكار التائقه إلى الحكمة — ذلك الرضيع الملتف بأثواب أمه الفقيرة قد انتزع باطفه صولجان القوة من المشترى وأسلمه للراعى المسكين المتكىء على الاعشاب بين أغنامه . وأخذ الحكمة من ميترفا برقته ووضعها على لسان الصياد الفقير الجالس فى زورقه على شاطىء البحيرة ، واستخلص الغبطة بحزن نفسه من اپولون ووهبها لكسير القلب الواقف مستعطياً أمام الابواب ، وسكب الجمال بجماله من ڤينيس وبثه فى روح المرأة الساقطة الخائفة من قساوة

المضطهدين ، وأنزل البعل عن جبروته وأقام مكانه الفلاح البائس الذى ينثر فى الحقل البذور مع عرق الجبين

* * *

أو لم تكن عواطفى بالامس كأسباط اسرائيل يا حبيبتى؟ أما ترقبت فى سكينة الليل مجىء مخلص ينقذني من عبودية الايام ومتاعها ؟ أما شعرت كالأمم الغابرة بالمجاعة الروحية العميقة ؟ أما سرت على طرق الحياة مثل صبي ضائع بين الاحياء المهجورة . أو لم تكن نفسى كالنواة المطروحة على الصخرة : لا الطير يلتقطها فيميتها ، ولا العناصر تشقها فتحييها

قد كان ذلك كله بالأمس يا حبيبتى عند ما كانت أحلامى تدب فى جوانب الظلمة وتخاف الاقتراب من النور — عند ما كان اليأس يلوى أضلعي والضجر يقوّمها

ففى ليلة واحدة ، بل فى ساعة واحدة ، بل فى لحظة واحدة تتنحى عن سنى حياتى، لانها أجمل من سنى حياتي هبط الروح من وسط دائرة النور الأعلى ، ونظر اليَّ من وراء عينيك ، وتكلم معى بلسانك . ومن تلك النظرة وهاتيك الكلمة انبثق الحب وحل فى أعشار قلبي ... هذا الحب العظيم الجالس فى هذا

المذود المنزوى فى صدرى — هذا الحب الجميل الملتف بأقمطة العواطف — هذا الرضيع اللطيف المتكىء على صدر النفس قد جعل الاحزان فى باطنى مسرة واليأس مجداً والوحدة نعيماً . هذا الملك المتعالى فوق عرش الذات المعنوية قد أعاد بصوته الحياة لأيامى الميتة ، وأرجع بملامسه النور الى أجفاني المقرحة بالدموع ، وانتشل بيمينه آمالى من لجة القنوط

***

كان كل الزمن ليلا ياحبيبتى ، فصار فجراً ، وسيصير نهاراً لأن أنفاس الطفل يسوع قد تخللت دقائق الفضاء وما زجت ثانويات الأثير . وكانت حياتى حزناً ؛ فصارت فرحاً وستصير غبطة ، لأن ذراعى الطفل قد ضمتا قلبى وعانقتا نفسى



مناجاة ارواح

***

استيقظي ياحبيبتي ! استيقظي لان روحي تناديك من وراء البحار الهائلة ، ونفسي تمد جنحيها نحوك فوق الامواج المزبدة الغضوبة . استيقظي ، فقد سكنت الحركة وأوقف الهدوء ضجة سنابك الخيل ووقع أقدام العابرين وعانق النوم أرواح البشر ، فبقيت وحدي مستيقظاً ، لان الشوق ينتشلني كلما أغرقني النعاس . والمحبة تدنيني اليك عند ما تقصيني الهواجس . قد تركت مضجعي يا حبيبتي خوفاً من خيالات السلو المختبئة بين طيات اللحف ورميت بالكتاب ، لان تأوهي قد أباد السطور من صفحاته فأصبحت خالية بيضاء أمام عيني . استيقظي ! استيقظي ياحبيبتي واسمعيني

— هاءنذا يا حبيبي ! قد سمعت نداءك من وراء البحار وشعرت بملامس جناحيك . فانتبهت وتركت

مخدعى وسرت على الاعشاب ، فتبللت قدماى وأطراف ثوبى من ندى الليل . ها أنا واقفة تحت أغصان اللوز المزهرة أسمع نداء نفسك يا حبيبى !

ـ تكلمى ياحبيبتى ! ودعى أنفاسك تسيل مع الهواء القادم نحوى من أودية لبنان . تكلمى ، فلا سامع غيرى ، لان الظلمة قد دحرت جميع المخلوقات الى أوكارها ، والنعاس أسكر سكان المدينة وبقيت وحدى صاحياً

ـ قد نسجت السماء نقاباً من أشعة القمر وألقته على جسد لبنان ياحبيبى !

ـ قد حاكت السماء من ظلمة الليل رداءً كثيفاً مبطناً بدخان المعامل وأنفاس الموت وسترت به أضلع المدينة ياحبيبتى !

* * *

ـ قد رقد سكان القرى فى أكواخهم القائمة بين أشجار الجوز والصفصاف وتسابقت نفوسهم نحو مراسح الاحلام ياحبيبى !

ـــ قد أناخت احمـــال الذهب قامات البشر ، وأوهنت عقبـات المطامع ركبهم ، وأثقلت المتـــاعب أجفانهم . فارتموا على الفرش وأشبـــاح الخوف والقنوط تعـــذب قلوبهم ياحبيبتى !

* * *

ـــ قد سرت فى الاودية خيـالات الاجيـــال الغابرة ، وحامت على الروابي أرواح المـــلوك والانبيـاء ، فذهبت فكرتى نحو مسارح الذكرى وأرتنى عظائم الكلدانيين وفخامة الاشوريين ونبالة العرب

ـــ قد سرت فى الازقة أرواح اللصوص القاتمة ، وظهرت من بين شقوق النوافذ رؤوس أفاعى الشهوات ، وجرت فى منعطفات الشوارع أنفاس الامراض ممزوجة بلهاث المنايا فازاحت الذكرى ستائر النسيان وأرتنى مكاره صادوم وآثام عاموره .

* * *

ـ قد تمايلت الاغصان يا حبيبي وتحالف حفيفها مع خرير ساقية الوادى ورددت على مسامعى نشيد سليمان ورنات قيثارة داود وأغانى الموصلي

ـ قد ارتعشـــت نفوس أطفال الحى وأقلقهم الجوع . وتســـارعت تنهدات الامهات المضطجعات على أسرة الهم

واليأس ، وأراعت أحلام العـــوز قلوب الرجال المقعدين ، فسمعت نواحاً مراً وزفيراً متقطعاً يملأ الضلوع ندباً ورثاءً

* * *

ـ قد فاحت روائح النرجس والزنبق وعانقت عطر الياسمين والبيلسان ثم تمازجت بانفاس الارز الطيبة وسرت مع تموجات النسيم فوق الطلول المتشعبة والممرات الملتوية ، فملأت النفس انعطافاً ومنحتها حنيناً إلى الطيران

ـ قد تصاعدت روائح الازقة الكريهة واختمرت بجراثيم العلل ، ومثل أسهم دقيقة خافية قد خدشت الحس وسممت الهـــواء

* * * *

ـ ها قد جاء الصـــباح يا حبيبي وداعبت أصـابع اليقظة أجفان النيـام وفاضت الاشـــعة البنفسجية من وراء الجبل وأزالت غشاء الليل عن عزم الحيـاة ومجدها ، فاســـتفاقت القرى المتكئة بهدوء وســـكينة على كتفي الوادي وترنمت أجراس الكنائس وملأت الاثير نداءً مســـتحباً معلنة بدء صلاة الصباح ، فارجعت الكهوف صدى رنينها ، كأن الطبيعة بأسرها قامت مصلية . قد غادرت العجول مرابضهـا وتركت قطعان الغنم والماعز حظائرها وانثنت نحو الحقول ترتعي

رؤوس الاعشاب المتلمعة بقطر الندى ومشى أمامها الرعاة ينفخون الشبابات ووراءها الصبايا المتأهلات مع العصافير بقدوم الصباح

ـ قد جاء الصباح يا حبيبي وانبسطت فوق المنازل المكردسة اكف النهار الثقيلة ، فازيحت الستائر عن النوافذ وانفتحت مصاريع الابواب ، فبانت الوجوه الكالحة والعيون المعروكة ، وذهبت التعساء إلى المعامل وداخل أجسادهم يقطن الموت فى جوار الحياة ، وعلى ملامحهم المنقبضة قد بان ظل القنوط والخوف ، كأنهم منقادون قهراً إلى عراك هائل مهلك ها قد غصت الشوارع بالمسرعين الطامعين وامتلأ الفضاء من قلقلة الحديد ودوى الدواليب وعويل البخار وأصبحت المدينة ساحة قتال يصرع فيها القوى الضعيف ويستأثر الغنى الظلوم بأتعاب الفقير المسكين

* * *

ـ ما أجمل الحياة هنا يا حبيبي ، فهى مثل قلب الشاعر المملوء نوراً ورقة

ـ ما أقسى الحياة هنا يا حبيبتى ، فهى مثل قلب المجرم المفعم بالآثم والمخاوف

أيتها الريح

✲ ✲ ✲ ✲ ✲

تمرين آناً مترنحة فرحة ، وآونة متأوهة نادبة ، فنسمعك ولا نشاهدك ، ونشعر بك ولا نراك ، فكأنك بحر من الحب يغمر أرواحنا ولا يغرقها ، ويتلاعب بأفئدتنا وهى ساكنة .

تتصاعدين مع الروابى وتنخفضين مع الأودية وتنبسطين مع السهول والمروج . ففى تصاعدك عزم ، وفى انخفاضك رقة ، وفى انبساطك رشاقة ، فكأنك مليك رؤوف يتساهل مع الضعفاء الساقطين ويترفع مع الأقوياء المتشامخين

فى الخريف تنوحين فى الأودية فتبكى لنواحك الأشجار ، وفى الشتاء تثورين بشدة فتثور معك الطبيعة بأسرها ، وفى الربيع تعتلين وتضعفين ولضعفك تستفيق الحقول ، وفى الصيف تتوارين وراء نقاب السكون فنخالك ميتاً قتلته سهام الشمس ثم كفنته بحرارتها

لكن ـ أنادبة كنت أيام الخريف ، أم ضاحكة من خجل الأشجار بعد أن عرّيتها من ملابسها ؟ أغاضبة كنت أيام الشتاء ، أم راقصة حول قبور الليالى المكلسة بالثلوج ؟ أعليلة كنت أيام الربيع ، أم حبيبة أضناها البعاد فجاءت تصعد بالتنهد أنفاسها على وجه حبيبها شاب الفصول لتنبهه من رقاده ؟ أميتة كنت أيام الصيف ، أم هاجعة فى قلوب الأثمار وبين جفنات الكروم وعلى بيادر القش ؟

* * *

أنت تحملين من أزقة المدينة أنفاس العلل ومن الروابي أرواح الأزهار وهكذا تفعل النفوس الكبيرة التى تحتمل أوجاع الحياة بسكينة . وبسكينة تلتقى بأفراحها

أنت تهمسين فى أذن الوردة أسراراً غريبة تفهم مفادها ، فتضطرب تارة ، وطوراً تبتسم . وهكذا تفعل الآلهة بأرواح البشر

أنت تبطئين هنا ، وتتسارعين هناك ، وتتراكضين هنالك ، ولكنك لا تقفين قط . وهكذا تفعل فكرة الانسان التى تحيا بالحركة وتموت بالسبات

أنت تكتبين على وجه البحيرة اشعاراً ثم تمحينها . وهكذا يفعل الشعراء المترددون .

من الجنوب تجيئين حارة كالمحبة ، ومن الشمال تأتين باردة كالموت ، ومن المشرق لطيفة كملامس الأرواح ، ومن المغرب تدفقين شديداً كالبغضاء . أمتقلبة كالدهر ؟ أم أنت رسول الجهات تبلغين إلينا ما تأتمنك عليه ؟

تمرين غاضبة فى الصحارى فتدوسين القوافل بقساوة ثم تلحدينها بلحف الرمال . فهل أنت أنت ذلك السيال الخفى المتموج مع أشعة الفجر بين أوراق الغصون ، المنسل كالاحلام فى منعطفات الاودية حيث تمايل الازهار شغفاً بك وتتخاصر الاعشاب سكراً من أنفاسك ؟

تثورين ظلماً فى البحار فتحركين ساكن أعماقها ، حتى إذا أزبدت حنقا عليك فتحت فاها لجة ولقمتها من السفن والارواح لقماً مرة . فهل أنت أنت ذلك المحب المتلاعب حنواً بغدائر الاطفال المتراكضين حول المنازل ؟

* * *

إلى أين تتسارعين بأرواحنا وتنهداتنا وأنفاسنا ؟ إلى أين تحملين رسوم ابتساماتنا ؟ وماذا تفعلين بشعلات قلوبنا المتطايرة ؟ هل تذهبين بها إلى ما وراء الشفق — إلى ما وراء

هذه الحياة ؟ أم تجرينها فريسة إلى المغاور البعيدة والكهوف المخيفة وهناك تقذفينها يميناً وشمالاً حتى تضمحل وتختفى ؟

فى سكينة الليل تبيح لك القلوب أسرارها، وعند الفجر تحالك العيون اهتزازات أجفانها . فهل أنتِ ذاكرة ما شعرت به القلوب وما رأته العيون؟

بين جنحيك يستودع الفقير صدى انسحاقه ، واليتيم حرقته والحزينة تأوهاتها . وطى أثوابك يضع الغريب حنينه ، والمتروك لهفته ، والساقطة عويل نفسها . فهل أنتِ حافظة لهؤلاء الصغار ودائعهم ؟ أم أنتِ كهذه الارض لا نودعها شيئاً إلا وتحوله إلى جسمها ؟

أسامعة أنتِ هذا النداء ، وهذا العويل، وهذا الضجيج، وهذا البكاء ؟ أم أنتِ كالأقوياء من البشر تمتد إليهم الاكف فلا يلتفتون وتتصاعد نحوهم الاصوات فلا يسمعون ؟
أسامعة أنتِ يا حياةً للسامع؟



رجوع الحبيب

☆ ☆ ☆

ما جاء الليل حتى انهزم الاعداء وفى ظهورهم تخديش السيوف ووخز الرماح ، فعاد الظافرون حاملين الوية الفخر ، منشدين اهازيج النصر على توقيع حوافر خيولهم المتساقطة كالمطارق على حصباء الوادى

أشرفوا على الجبهة وقد طلع القمر من وراء فم الميزاب ، فظهرت تلك الصخور الباسقة متشامخة مع نفوس القوم نحو العلاء ، وبانت غابة الارز بين تلك البطاح كأنها وسام مجد أثيل علقته الاجيال الغابرة على صدر لبنان

ظلوا سائرين واشعة القمر تلمع على أسلحتهم ، والكهوف البعيدة تتقلد نداءاتهم ، حتى إذا ما بلغوا جبهة العقبة أوقفهم صهيل فرس واقف بين الصخور الرمادية كأنه قد نحت منها . فاقتربوا منه مستطلعين ، واذا بجثة هامدة مرتمية على أديم التراب المخضب بنجيع الدماء . فصرخ زعيم القوم قائلا « أروني سيف الرجل . فاعرف صاحبه » . فترجل بعض الفرسان وأحاطوا بالمصروع مستفسرين . وبعد هنيهة التفت أحدهم نحو الزعيم

وقال بصوت أجش : « قد عانقت أصابعه الباردة قبضة السيف بشدة ، فمن العار أن ننزعه »

وقال آخر : « قد لبس السيف غمداً من الدماء ، فاختفى فولاذه »

وقال آخر : « قد تجمدت الدماء على الكف والقبضة وأوثقت الشفرة بالزند وصيرتهما واحداً »

فترجل الزعيم واقترب من القتيل قائلا : « اسندوا رأسه ودعوا أشعة القمر ترينا وجهه » ففعلوا مسرعين ، وبان وجه القتيل من وراء نقاب الموت ظاهرة عليه ملامح البطش والبأس والتجلد — وجه فارس قوى يتكلم بلا نطق عن شدة رجوليته وجه متأسف فارح ، وجه من لاقى العدو عابساً وقابل الموت مبتسماً ، وجه بطل لبناني حضر موقعة ذلك النهار ورأى طلائع الاستظهار . لكنه لم يبق لينشد مع رفقاه أهازيج النصر . ولما أزاحوا كوفيته ومسحوا غبار المعمعة عن وجهه المصفر ذعر الزعيم وصرخ متوجعا : « هذا ابن الصعبي ! فيا للخسارة ! » فردد القوم هذا الاسم متأوهين ، ثم سكتوا كأن قلوبهم السكرى بخمر النصر قد فاجأها الصحو ، فرأت أن خسارة هذا البطل هي أجسم من مجد التغلب وعز الانتصار . ومثل تماثيل الرخام أوقفهم هول المشهد وأيبس ألسنتهم فسكتوا ، وهذا كل ما يفعله الموت في نفوس الأبطال ، فالبكاء والنحيب

حريان بالنســاء ، والعويل والصراخ خليقان بالاطفال ، ولا يجمل برجال السيف غير السكوت المملوء هيبة ووقاراً — ذلك السكوت الذى يقبض على القلوب القوية مثلما تقبض مخالب النسر على عنق الفريسة — ذلك السكوت الذى يترفع عن الدموع والعويل ، فيزيد بترفعه البلية هولاً وقساوة — ذلك السكوت الذى يهبط بالنفس الكبيرة من قمم الجبال إلى اعماق اللجج — ذلك السكوت الذى يعلن مجيء العاصفة ، وان لم تجيء كان هو أشد فعلاً منها

خلعوا أثواب الفتى المصروع ليروا اين وضــع الموت يده ، فبانت كلوم الشــفار فى صدره كأنهــا أفواه مزبدة تتكلم فى هدوء ذلك الليل عن همم الرجال . فاقترب الزعيم وجثا مســتفحصا فوجد دون سواه منديلا مطرزاً بخيوط الذهب مربوطاً حول زنده . فتأمله سرًّا وعرف اليد التى غزلت حريره والأصابع التى حاكت خيوطه . فســتره بالأثواب وتراجع قليلاً إلى الوراء حاجباً وجهه المنقبض بيده المرتعشة — تلك اليد التى كانت تزيح بعزمهــا رؤوس الأعداء قد ضعفت وارتجفت وصــارت تمسح الدموع ، لأنها لامست حواشى منديل عقدت أطرافه أصابع محبوبة حول زند فتى جاءَ ليشهد يوم الكريهة مدفوعاً ببسالته فصرع وسوف يرجع إليها محمولا على أكف رفاقه

وبينما كانت نفس الزعيم تتراوح بين مظالم الموت وخفايا الحب قال أحد الواقفين : « تعالوا نحفر له قبراً تحت تلك السنديانة ، فتشرب أصولها من دمه وتتغذى فروعها من بقاياه ، فتزداد قوة وتصير خالدة وتكون له رمزاً يمثل لهذه الطلول بطشه وبأسه »

فقال آخر : « لنحمله إلى غابة الأرز ونقبره بقرب الكنيسة ، فتظل عظامه مخفورة بظل الصليب إلى آخر الدهر »

وقال آخر : « هنا اقبروه هنا ، حيث جبل التراب بدمائه واتركوا سيفه في يمينه ، واغرسوا رمحه بجانبه وانحروا حصانه على قبره ، ودعوا أسلحته تؤنسه في هذه الوحدة »

وقال آخر : « لا تلحدوا سيفاً مضرجاً بدم الاعداء ، ولا تنحروا مهراً يخوض المنايا، ولا تتركوا في الوعر سلاحاً تعوّد هز الاكف وعزم السواعد بل احملوها إلى ذويه لأنها خير ميراث »

وقال آخر : « تعالوا نجثو مصلين حواليه صلاة الناصري، فتغفر له السماء وتبارك انتصارنا »

وقال : « لنرفعه على الأكتاف جاعلين له الرماح والتروس نعشاً ، فنطوف به في هذا الوادي منشدين أهازيج النصر

فيشاهد اشلاء الأعداء وتبتسم شفاه جراحه قبل أن يخرسها تراب القبر »

وقال آخر : « تعالوا نُعليه سرج جواده ونسنده بجماجم القتلى ونقلده رمحه وندخله الاحياء ظافراً ، فهو لم يستسلم للمنية إلا بعد أن حمَّلها من أرواح الاعداء حملاً ثقيلاً »

وقال آخر : « تعالوا نودعه لحف هذا الجبل ، فيكون له صدى الكهوف نديماً ، وخرير السواقى مؤنساً ، فترتاح عظامه فى برية يكون فيها وقع أقدام الليالى خفيف الوطأة »

وقال آخر : لا تغادروه ههنا ، ففى البرية وحشة مملة ووحدة قاسية ، بل تعالوا ننقله إلى جبانة القرية ، فيكون له من أرواح جنودنا رفاق تناجيه فى سكينة الليل وتقص عليه أخبار حروبهم وأحاديث أمجادهم »

فتقدم الزعيم اذ ذاك إلى وسط رجاله واسكتهم باشارة . ثم قال متنهداً : لا تزعجوه بذكرى الحروب ، ولا تعيدوا على مسامع روحه الحائمة فوق رؤوسنا أخبار السيوف والرماح ، بل تعالوا نحمله بسكينة وهدوء إلى مسقط رأسه . ففى ذلك الحى نفس ساهرة تترقب قدومه — نفس صبية تنتظر رجوعه من بين الاسنة . فلنعيده اليها كيلا تحرم نظرة من وجهه وقبلة من جبينه »

حملوه على المناكب مطأطئي الرؤوس ، خاشعي العيون مشوا بسكينة محزنة يتبعهم فرسه الكئيب يجر مقوده على الارض ويصهل من وقت إلى آخر، فتجيبه الكهوف بصداها ، كأن للكهوف أفئدة تشعر مع البهيم بشدة الضيم والاسى

بين أضلع ذلك الوادى ، حيث أشعة القمر تسترق خطواتها سار موكب النصر وراء موكب الموت وقد مشى أمامهما طيف الحب ساحبا أجنحته المكسورة



جمال الموت

☆ ☆ ☆

مرفوعة إلى M. E. H.

دعونى انم ، فقد سكرت نفسى بالمحبة

دعوني أرقد ، فقد شبعت روحى من الايام والليالى

اشعلوا الشموع وأوقدوا المباخر حول مضجعى . وانثروا أوراق الورد والنرجس على جسدى . وعفروا بالمسك المسحوق شعرى واهرقوا الطيوب على قدمى ثم انظروا واقرأوا ما تخطه يد الموت على جبهتى

خلوني غارقاً بين ذراعى الكرى ، فقد تعبت أجفانى من هذة اليقظة

اضربوا على القيثارات ودعوا رنات أوتارها الفضية تتمايل فى مسامعى

انفخوا الشبابات والنايات وحيكوا من أنغامها العذبة نقاباً حول قلبى المتسارع نحو الوقوف

ترنموا بالاغانى الرهاوية وابسطوا من معانيها السحرية

فراشاً لعواطفى ثم تأملوا وانظروا شعاع الأمل فى عينى

امسحوا الدموع يارفاقى ، ثم ارفعوا رؤوسكم مثلما ترفع الازهار تيجانها عند قدوم الفجر وانظروا عروسة الموت منتصبة كعمود النور بين مضجعى والفضاء ... امسكوا أنفاسكم واصغوا هنيهة واسمعوا معى حفيف أجنحتها البيضاء

تعالوا ودعونى يا بنى أمى ! قبلوا جبهتى بشفاه مبتسمة . قبلوا شفتى بأجفانكم وقبلوا أجفانى بشفاهكم

قربوا الاطفال الى فراشى ودعوهم يلامسوا عنقى بأصابعهم الوردية الناعمة . قربوا الشيوخ ليباركوا جبهتى بأيديهم الذابلة المتجعدة . دعوا بنات الحى يقتربن وينظرن خيال الله فى عينىَّ ويسمعن صدى نغمة الابدية متسارعة مع أنفاسى

(الانفصال)

ها قد بلغت قمة الجبل فسبحت روحى فى فضاء الحرية والانعتاق

قد صرت بعيداً بعيداً يا بنى أمى ، فانحجبت عن بصيرتى جبهات الطلول وراء الضباب ، وغمرت خلايا الأودية ببحر السكون ، وامحت السبل والممرات بأكف النسيان ، وتوارت المروج والغابات والعقبات وراء أشباح

بيضاءَ كغيوم الربيع ، وصفراء كشعاع الشمس ، وحمراءَ كوشاح المساء

قد تضعضعت أغانى أمواج البحر واضمحلت ترنيمة السواقى فى الحقول وسكنت الأصوات المتصاعدة من جوانب الاجتماع ، فلم أعد أسمع سوى أنشودة الخلود متآلفة مع أميال الروح

(الراهبة)

اخلعوا نسيج الكتان عن جسدى وكفنونى باوراق الفل والزنبق

انتشلوا بقاياى من تابوت العاج ومددوها على وسائد من زهر البرتقال والليمون ، لا تندبونى يا بنى أمى ، بل أنشدوا أغنية الشباب والغبطة. لا تذرفى الدموع يا ابنة الحقول بل ترنمى بموشحات أيام الحصاد والعصير

لا تغمروا صدرى بالتأوه والتنهيد ، بل ارسموا عليه باصابعكم رمز المحبة ووسم الفرح

لا تزعجوا راحة الاثير بالتعزيم والتكبين ، بل دعوا قلوبكم تهلل معى بتسبيحة البقاء والخلود

لا تلبسوا السواد حزنا عليّ ، بل ترددوا بالبياض فرحا معى

ولا تتكلموا عن ذهابي بالغصات ، بل اغمضوا عيونكم
تروني بينكم الآن وغداً وبعده

مدوني على أغصان مورقة وارفعوني على الاكتاف
وسيروا بي ببطء إلى البرية الخالية

لا تحملوني إلى الجبانة ، لأن الزحام يزعج راحتي ،
وقضقضة العظام والجماجم تسلب سكينة رقادي

احملوني إلى غابة السرو واحفروا لي قبراً في تلك البقعة
حيث ينبت البنفسج بجوار الشقيق

احفروا قبراً عميقاً كيلا تجرف السيول عظامي إلى
الوادي

احفروا قبراً وسيعاً لكي تجيء اشباح الليل وتجلس
بجانبي

اخلعوا هذه الاثواب ودلوني عارياً إلى قلب الأرض .
مدوني ببطء وهدو على صدر أمي

اغمروني بالتراب الناعم والقوا مع كل حفنة قبضة من
بذور السوسان والياسمين والنسرين فتنبت على قبري ممتصة
عناصر جسدي ، وتنمو ناشرة في الهواء رائحة قلبي ، وتتعالى

رافعة فى وجه الشمس سرائر راحتى ، وتمايلُ مع النسيم
مذكرةً عابرَ الطريق بماضى أمبالى وأحلامى

اتركونى الآن يا بنى أمى — أتركونى وحدى وسيروا
باقدام خرساء مثلما تسير السكينة فى الاودية الخالية

دعونى وحدى وتفرقوا عنى بهدوءٍ مثلما تتفرق ازاهر
اللوز والتفاح عند ما تنثرها أنفاس نيسان

ارجعوا إلى منازلكم فتجدوا هناك ما لم يستطع الموت أن
يأخذه منى ومنكم

اتركوا هذا المكان ، فالذى تطلبونه صار بعيداً عن
هذا العالم ...



أغانى

أغنية

* * *

فى أعماق نفسى أغنية لا ترتضى الألفاظ ثوباً . أغنية تقطن حبة قلبي ، فلا تريد أن تسيل مع الحبر على الورق ، وتحيط بعواطفى كغلاف شفاف ، فلن تنسكب على لساني كالرضاب

كيف أتنهدها وأنا أخاف عليها من دقائق الأثير ؟ ولمن أنشدها وقد تعودت سكنى بيت نفسى فاخشى عليها من خشونة الآذان

ان نظرت إلى عينى رأيت خيال خيالها وان لمست أطراف أصابعى شعرت باهتزازاتها

أعمال يدى تبينها مثلما تعكس البحيرة لمعان النجم

ودموعي تبيحها كما تبيح قطرات الندى سر زهرة الورد عند ما تبعثرها الحرارة

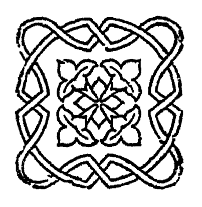
أغنية تنشرها السكينة ويطويها الضجيج وترددها الاحلام وتخفيها اليقظة

هي أغنية الحب أيها الناس ، فأي اسحق ينشــــدها بل أي داود يرتلها ؟

هي أعبق من أنفاس زهرة الياسمين ، فاية حنجرة تستعبدها؟ وأصون من سر العذارى ، فأية أوتار تستبيحها ؟

من يجمع بين قواصف البحر وتغريدة البلبل ويقرن العواصف بتنهدة الطفل ؟

أي بشريّ ينشد أغنية الآلهة ؟



أغنية الموج

☆ ☆ ☆

أنا والشاطىء عاشقان يقربهما الهوى ويفصلهما الهواء . أجيء من وراءِ الشفق الأزرق كيما أمزج فضة زبدى بذهب رماله، وأبرد حرارة قلبه برضابي

عند الفجر أتلو شرع الغرام على مسامع حبيبي ، فيضمنى إلى صدره . وفى المساءِ أترنم بصلاة الشوق ، فيقبلني

أنا الجوجُ جزوع وحبيبي حليف صبر وأليف تجلد

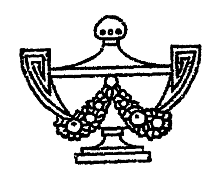
يأتى المدُّ فأعانق حبيبي ، ويعقبه الجزر فأترامى على أقدامه

كم رقصت حول بنات البحر عند ما كنَّ يطلعنَ من الأعماق ويجلسن على الصخور ليتفرجن على النجوم . وكم سمعت المحب يشكو الغرام لذات حسنٍ فساعدته على

التأوه والتنهد . وكم نادمت الصخور وهى جامدة وداعبتها ضاحكاً ولم تبتسم . وكم خلصت من اللجة أجساداً وجئت بها إلى الاحياء . وكم سرقت من الأعماق دراً أهديته إلى ربات الجمال

فى سكينة الليل عند ما تعانق المخلوقات طيف الكرى أسهر مترنماً تارة ، متنهداً أخرى — ويحى لقد أتلفنى السهر ، ولكن أنا محب وحقيقة الحب يقظة

هذه حياتى وذا ما عشت أصنعه



أغنية المطر

أنا خيوط فضية تطرحنى الآلهة من الأعالى فتاخـــذني الطبيعة وتنمق بي الاودية

أنا لآلىء جميلة نثرت من تاج عشتروت فسرقتنى ابنة الصباح ورصعت بى الحقول

أنا أبكى فتبتسم الطلول ، واتضع فترتفع الازهار

الغيمة والحقل عاشقان وأنا بينهما رسول مسعف انهمل فابرّد غليل هذا وأشفى علة تلك

صوت الرعد وأسياف البرق تبشر بقدومي وقوس القزح يعلن نهاية سفرتي — كذا الحياة الدنيا تبتدىء بين أقدام المادة الغضبى وتنتهى على اكف الموت الهادىء

أصعد من قلب البحيرة واسير على أجنحة الاثير ، حتى اذا ما رأيت روضة جميـــلة سقطتُ وقبلت ثغور ازاهرها وعانقت أغصانها

فى السكينة اطرق بأناملي اللطيفة بلور النوافذ فتؤلف تلك الطرقات نغمة تفقهها النفوس الحساسة

حرارة الهواء تولدنى وأنا أقتل حرارة الهواء — كذا المرأة التى تتغلب على الرجل بقوة استمدتها من الرجل

أنا تنهدة البحر . أنا دمعة السماء ، أنا ابتسامة الحقـــل .

كذا الحب — تنهدة من بحر العواطف ودمعة من سماء التفكر وابتسامة من حقل النفس



أغنية الجمال

٭ ٭ ٭ ٭ ٭

أنا دليل الحب ، أنا خمرة النفس ، أنا مأكل القلب
أنا وردة أفتح قلبي عند فتوّة النهار فتأخذنى الصبية وتقبلنى تضعنى على صدرها
أنا بيت السعادة ، أنا مصدر الفرح ، أنا مبدأ الراحة
أنا ابتسامة لطيفة على شفتى غادة ، يرانى الشاب فينسى تعابه وتصير حياته مسرح أحلام لذيذة
أنا موحى الشعراء وهادى المصورين ومعلم الموسيقيين .
أنا نظرة فى عين طفل تراها الأم الحنونة فتسجد وتصلي تمجد الله

تجليت لآدم بجسم حواء فاستعبدته ، وظهرت لسليمان ، قدّ حبيبته فصيرته حكيماً وشاعراً
ابتسمتُ لهيلانه فخربت تروادة . وتوجتُ كليوبترا فعمّ الانس فى وادى النيل

أنا كالدهر أبنى اليوم وأهدم غداً . أنا الله احي وأميت
أنا ارق من تنهدة زهرة البنفسج ، انا أشد من العاصفة .
أنا حقيقة يا أيها الناس — أنا حقيقة وهذا خير ما تعلمونه .

أغنية السعادة

***

الانسان حبيبي وأنا حبيبته. اشتاق اليه ويهيم بى، ولكن، أواه! لى فى محبته شريكة تشقينى وتعذبه. وضرة طاغية تدعى المادة تتبعنا حيث نذهب وتفرقنا كالرقيب

أطلب حبيبى فى البرية تحت الاشجار وبقرب البحيرات فلا أجــــده، لان المادة قد غرته وذهبت به إلى المدينة إلى الاجتماع والفساد والشقاء

أطلبه فى معاهــــد المعرفة وفى هيا كل الحكمة فلا أجده لان المادة — تلك التى ترتدى التراب وقد قادته إلى معاقل الانانية حيث يقطن الانهماك

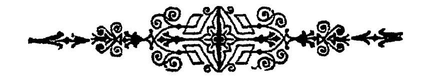
أطلبه فى حقل القناعة فلا أجده، لان عدوّتى قد قيدته فى مغائر الطمع والشراهة

أناديه عند الفجر عند ما يبتسم المشرق، فلا يسمعنى، لان كرى الاستمساك قد أثقل عينيه. اداعبه فى المساء إذ

تسود السكينة وتنام الازهار ، فلا يحفل بى ، لان انشغافه بمآتى الغد يشغل ضميره

حبيبى يحبنى — يطلبنى فى أعماله وهو لن يجدني إلا فى أعمال الله . يروم وصالى فى صرح المجد الذى بناه على جماجم الضعفاء وبين الذهب والفضة وأنا لا أوافيه إلا فى بيت البساطة الذى بنته الآلهة على ضفة جدول العواطف . يريد تقبيلي أمام الطغاة والقتلة وأنا لا أدعه يلثم ثغرى إلا فى الوحدة بين أزهار الطهر ، يبتغى الحيلة وسيطاً بيننا ولا أطلب وسيطاً إلا العمل المنزه — العمل الجميل

قد تعلم حبيبى الصراخ والضجيج من عدوتى المادة وأنا سوف أعلمه ان يذرف دمعة استعطاف من عين نفسه ويتنهد تنهدة استكفاء . حبيبى لى وأنا له



أنشودة الزهرة

☆ ☆ ☆

أنا كلمة تقولها الطبيعة ثم تستردها وتخفيها طي قلبها ثم تقولها . أنا نجم هبط من الخيمة الزرقاء على بساط أخضر

أنا ابنة العناصر التي حبل بها الشتاء وتمخض بها الربيع ورباها الصيف ونومها الخريف

أنا هدية المحبين . . أنا اكليل العرس . انا آخر عطية من حي الى ميت

عند الصباح اتعاون والنسيم على اعلان مجيء النور وفي المساء اشترك مع الطيور بوداعه

أتمايل في السهول فازينها واتنفس في الهواء فاعطره . أضم الكرى فترمقني عيون الليل العديدة وأطلب اليقظة لاحدق بعين النهار الوحيدة

أنا أشرب خمرة الندى وأسمع أغاني الشحارير وأرقص على تصفيق الاعشاب . أنا أنظر الى العلو دائماً كي أرى النور ولا أرى خيالي وهذه حكمة لم يتعلمها الانسان بعد

نشيد الانسان

* * *

« وكنتم أمواتاً فاحياكم ثم
يميتكم ثم يحييكم ثم اليـــه
ترجعون »

(القرآن الشريف)

أنا كنت منذ الازل ، وها انا ذا ، وسأكون إلى آخر الدهر وليس لكياني انقضاء

سبحت فى فضاء اللانهاية وطرت فى عالم الخيال واقتربت من دائرة النور الاعلى وها أنا الآن سجين المادة

سمعت تعاليم كنفوشيوس واصغيت لحكمة برهما وجلست بقرب بوذا تحت شجرة المعرفة وها أنا الآن أغالب الجهل والجحود . كنت على الطور إذ تجلى « يهوه » لموسى ، وفى عبر الاردن فرأيت معجزات الناصرى ، وفى المدينة فسمعت أقوال

رسول العرب وها أنا الآن أسير الحيرة . شاهدت قوات بابل ومجد مصر ، وعظمة اليونان ، ولم أزل أرى الضعف والذل والصغر بادية فى جميع تلك الاعمال . جالست سحرة عين دور وكهنة أشور وأنبياء فلسطين ، وما برحت أنشد الحقيقة . حفظت الحكمة التى نزلت على الهند واستظهرت الشعر المنبثق من قلوب سكان جزيرة العرب ووعيت الموسيقى المتجسمة من عواطف أهل المغرب وما زلت أعمى لا أرى ، وأصم لا أسمع. احتملت قساوة الفاتحين الطامعين وقاسيت ظلم الحكام المستبدين وعبودية الاقوياء الباغين وما برحت ذا قوة أكافح بها الايام

شاهدت وسمعت كل ذلك وأنا طفل ولسوف أشاهد وأسمع أعمال الشبيبة ومآتيها ولسوف اشيخ وأبلغ الكمال وارجع إلى الله

أنا كنت منذ الازل ، وها أنا ذا ، وسأكون إلى آخر الدهر ، وليس لكيانى انقضاء



صوت الشاعر

١

القوة تزرع فى أعماق قلبى وأنا أحصد وأجمع السنابل وأعطيها أغماراً للجائعين . الروح يحيي هذه الجفنة الصغيرة وأنا أعصر عناقيدها وأسقيها للظامئين . السماء تملأ هـــذا السراج زيتاً وأنا أنيره وأضعه فى نافذة بيتى من أجل العابرين فى ظلمة الليل. أنا فاعل هذه الاشياء ، لاننى أحيا بهـا وآذا منعتنى الايام وغلت يدى الليالى طلبت الموت فالموت أخلق بنبى منبوذ فى أمته وشاعر غريب بين أهله

البشر يضجون كالعاصفة وأنا أتنهد بسكينة ، لانى وجدت عنف العاصفة يزول وتبتلعه لجة الدهر أما التنهدة فتبقى ببقاء الله

البشر يلتصقون بالمادة الباردة كالثلج وأنا أطلب شعـــلة

المحبة لاضمها الى صدرى فتأكل ضلوعى وتبرى أحشائي ، لاني ألفيت المادة تميت الانسان بلا ألم ، والمحبة تحييه بالأوجاع

البشر ينقسمون الى طوائف وعشائر وينتمون الى بلاد وأصقاع وأنا أرى ذاتي غريباً فى بلد واحد ، وخارجاً عن أمة واحدة . فالارض كلها وطنى والعائلة البشرية عشيرتى ، لانى وجدت الانسان ضعيفاً ومن الصغر ان ينقسم على ذاته ، والارض ضيقة ومن الجهل أن تتجزأ الى ممالك وإمارات

البشر يتكاتفون على هدم هيا كل الروح ويتعاونون على بناء معاهد الجسد وأنا وحدى واقف فى موقف الرثاء على انى أصغى ، فاسمع من داخلي صوت الأمل قائلا : « مثلما تحي المحبة القلب البشرى بالاوجاع كذا تعلمه الغباوة سبل المعرفة. فالاوجاع والغباوة تؤول الى لذة عظيمة ومعرفة كاملة؛ لان الحكمة السرمدية لم تخلق شيئاً باطلا تحت الشمس »

٣

أحن الى بلادى لجمالها وأحب سكان بلادى لتعاستهم . ولكن اذا ما هبَّ قومى مدفوعين بما يدعونه وطنية وزحفوا على وطن قريبي وسلبوا أمواله وقتلوا رجاله ويتموا أطفاله

ورملوا نساءه وسقوا أرضه دماء بنيه واشبعوا ضواريه لحوم فتيانه كرهت إذ ذاك بلادى وسكان بلادى

اتشبب بذكر مسقط رأسى واشتاق الى بيت ربيت فيه، ولكن إذا مر عابر طريق وطلب مأوى فى ذلك البيت وقوتاً من سكانه ومنع مطروداً استبدلت تشببى بالرثاء وشوقى بالسلو وقلت بذاتى: ان البيت الذى يضن بالخبز على محتاجه وبالفراش على طالبه لهو أحق البيوت بالهدم والخراب

احب مسقط رأسى ببعض محبتى لبلادى واحب بلادى بقسم من محبتى للارض وطنى. واحب الارض بكليتى لانها مرتع الانسانية روح الالوهية على الارض. لانسانية المقدسة روح الالوهيـــة على الارض. تلك الانسانية واقفة بين الخرائب، الساترة قامتهـــا العارية بالاطمار البالية. الذارفة الدموع السخينة على وجنتيها الذابلتين. المنادية ابناءها بصوت يملأ الاثير أنة وعويلا وأبناؤها مشغولون عن ندائهـا بأغانى العصبية، منصرفون عن دموعها بصقل السيوف. تلك الانسانية جالسة وحدها تستغيث بالقوم وهم لا يسمعون. وان سمعها فرد واقترب منها ومسح دموعها وعزاها فى شدائدها قال القوم. اتركوه فالدموع لا تؤثر بغير الضعيف

الانسانية روح الالوهية على الارض. تلك الالوهيـــة السائرة بين الأمم المتكلمة بالمحبة المشيرة الى سبل الحياة والناس

يضحكون مستهزئين بأقوالها وتعاليمها . تلك التي سمعها بالأمس الناصري فصابره . وسقراط فسمموه ، والتي سمعهـــا اليوم القائلون بالناصري وسقراط وجاهروا باسمها امام الناس والناس لا يقدرون على قتلهم ، لكنهم يسخرون بهم قائلين : السخرية أقسى من القتل وأمر

ولم تقو اورشليم على قتل الناصري ، فهو حي الى الأبد - ولا آتينا على اعدام سقراط ، فهو حي الى الابد . ولن تقوى السخرية على سامعي الانسانية وتابعي اقدام الالوهية . فسيحيون الى الأبد — الى الأبد

٣

أنت أخي وكلانا ابن روح واحد قدوس كلي . وأنت مماثلي لاننا سجينا جسدين جبلا من طينة واحدة . وأنت رفيقي على طريق الحياة ومسعفي في إدراك كنه الحقيقة المستترة وراء الغيوم . أنت انسان وقد أحببتك يا أخي

قل عني ما شئت ، فالغد يقضي عليك ويكون قولك قرينة ظاهرة أمام حكمه ، وبينة صائبة لدى عدله

خذ مني ما شئت ، فلست بسالب غير مال لك الحق بقسم منه وعقار استأثرت به لمطامعي ، فانت خليق ببعضه ان كان يرضيك بعضه

افعل بي ما تشاء ، فلست بقادر على مس حقيقتي . اهرق دمي واحرق جسدي فلا تؤلم نفسي ولن تميتها . كبل يديَّ ورجليَّ بالقيود وانزل بي الى ظلمة السجون ، فانك لا تقوى على أسر فكرتي ، لانها حرة كالنسيم السائر في فضاء لا حد له ولا مدى

أنت أخي وأنا أحبك ـ

أحبك ساجداً في جامعك وراكعاً في هيكلك ومصلياً في كنيستك ، فانت وأنا ابنا دين واحد هو الروح ، وزعماء فروع هذا الدين أصابع ملتصقة في يد الالوهية المشيرة الى كمال النفس

أحبك لمحبة حقيقتك المنبثقة من العقل العام . تلك الحقيقة التي لا أراها الآن لعماي ، لكني أعتبرها مقدسة لانها من أعمال النفس . تلك الحقيقة التي ستلتقي بحقيقتي في العالم الآتي فتمتزجان كانفاس الازهار وتصيران حقيقة واحدة كلية خالدة بخلود الحب والجمال

أحبك لاني رأيتك ضعيفاً أمام الاقوياء القساة وفقيراً محتاجاً أمام صروح الاغنياء الطامعين . لذلك بكيت من أجلك ومن وراء دموعي رأيتك بين ذراعي العدل وهو يبتسم لك ويستهزىء بمضطهديك

أنت أخي وأنا أحبك

٤

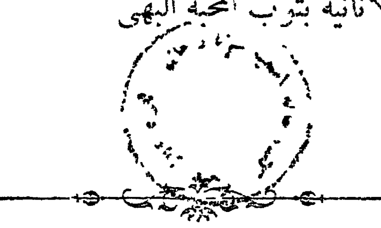
أنت أخى وأنا احبك ـ لماذا اذن تخاصمنى
لماذا تأتى بلادى وتحاول اخضاعى ارضاء لأئمة يطالبون المجد بقولك والمسرة بمتاعبك ؟ لماذا تترك رفيقتك وصغارك متبعاً الموت الى ارض بعيــــدة من اجل قواد يبتغون ابتياع المعالى بدمائك والشرف الرفيع باحزان والدتك ؛ ولكن أمن الشرف الرفيع ان يصرع الانسان أخاه ؟ انرفعن اذن تمثالا لقايين مترنمين بمديح حانان

يقولون يا أخى ان « المحافظة على الذات » قاعدة طبيعية أولية ، ولكننى رأيت الطامعين بالتميز يحببون اليك بذل الذات توصلا الى امتلاك رقاب اخوانك ـ ويقولون ان « حب البقاء » يوجب الاعتداء على حقوق الغير ، وأنا أقول : ان المحافظة على حقوق الغير هى أشرف وأجمل مآتى الانسان وأقول أيضاً : ان كان بقائى يوجب فناء سواى فالموت اذن ألذ لدى وأحب، وان لم أجد من يقتلنى شريفاً ومحباً منزهاً تمتعت بتقديم ذاتى بيدى الى الابدية قبل أوان الابدية

الانانية يا أخى أوجدت التنافس الاعمى ، والتنافس ولد العصبية، والعصبية وضعت السلطة وكانت هذه داعيا للمنازعات والاستعباد ـ النفس تقول بسلطة الحكمة والعدالة على الجهالة

والظلم ، لكنها تنكر تلك السلطة التي تستل من المعادن قواضب وبواتر لتعميم الجهالة والمظالم . تلك السلطة التي هدمت بابل وقوضت أركان اورشليم ودكت مباني رومية . تلك التي اوجدت سفاكي الدماء والقتلة الذين ينعتهم الناس بالعظماء والكتاب تجل اسماءهم والكتب لا تأبى حفظ معاركهم في بطونها كما ان الارض لم تأب حملهم على ظهرها حينما كانوا يخضبون محياها بالدماء الزكية ... فما اغراك يا أخي بما يغرك وألهجك بمن يضرك . السلطة الحقيقية هي الحكمة المحافظة على الشريعة الطبيعية العامة العادلة . فاين عدالة السلطة اذا قتلت القاتل وسجنت الناهب ثم زحفت بذاتها الى بلاد مجاورة وقتلت الألوف ونهبت الربوات ؟ ما قول العصبيين بقتلة يعاقبون من يقتل ولصوص تجازى من يسلب ؟

أنت أخي وأنا أحبك والمحبة هي العدل بأسمى ظواهره ، فان لم أكن عادلاً بمحبتي لك في كل المواطن كنت مراوغاً ساتراً بشاعة الانانية بثوب المحبة البهي



خاتمــة

٭ ٭ ٭

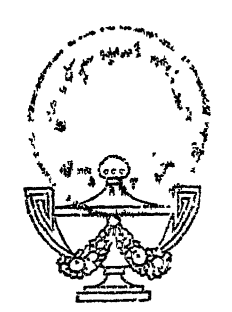
لى من نفسى صديق يعزينى اذا ما اشتدت خطوب الايام ويؤاسينى عند ما تلم مصائب الحياة ومن لم يكن صديقاً لنفسه كان عدوّ الناس ، ومن لا يرَ مؤنساً من ذاته مات قانطاً ، لان الحياة تنبثق من داخل الانسان ولن تجىء مما يحيط به

جئت لاقول كلمة وسأقولها واذا أرجعنى الموت قبل أن الفظها يقولها الغد . فالغد لا يترك سراً مكنوناً فى كتاب اللانهاية

جئت لاحيا بمجد المحبة ونور الجمال وهاءنذا حى والناس لا يستطيعون ابعادى عن حياتى . ان سملوا عينىّ تمتعت بالاصغاء لاغانى المحبة والحان الجمال . وان طمسوا اذنى تلذذت بملامسة اثير ممزوج بانفاس المحبين واريج الجمال . وان حجبونى عن الهواء عشت ونفسى . فالنفس ابنة الحب والجمال

جئت لاكون للكل وبالكل والذى افعله اليوم فى وحدتى يعلنه المستقبل امام النــاس . والذى اقوله الآن بلســان واحد يقوله الآتى بألسنة عديدة

فهرست



مطبوعاتنا
الأدبية والعلمية والروائية

نوابغ الأدب العصري :

مؤلفات المؤلف

الارواح الشريرة

ثمنها ٨ قروش

مجموعة تحتوى قصصاً واقعية عن أصحاب السلطة ، ورجال الدين ، وعن النظامات الاجتماعية ، والعادات ، والتقاليد ، على ما يراه الناس ويعملونه كل يوم

الأجنحة المتكسرة

ثمنها ٨ قروش

هى رواية عصرية واقعية مفعمة بالحكم والفلسفة والتشريح النفسى

عرائس المروج

ثمنها ٥ قروش

مجموعة تحتوى على ثلاث روايات اتخذ المؤلف فيها مراعى المواشى مراسح لرواياته ورعيان الغنم والبقر أبطالا لها . وكل ذلك فى جهات شمالى لبنان

مؤلفات المنفلوطى

النظرات

٣ أجزاء ثمنه ٦٠ قرشاً

وفيه تظهر شخصية هذا الكاتب العبقرى بأتم وضوح . تبدو فيه أفكاره وآراؤه جلية ظاهرة ونظراته السديدة فى الحياة والفلسفة والأدب والاجتماع

الفضيلة

أو رواية بولس وفرجيني ثمنها ٢٠ قرشاً

وهى من الروايات التى تشف عن العواطف السامية والأدب الراقى

الشاعر

او سيرانو دى برجراك

ثمنها ٢٠ قرشاً

هى خلاصة الرواية التمثيلية التى وضعها الشاعر العظيم
أدمون روستان

ماجدولين

او تحت ظلال الزيزفون

ثمنها ٢٠ قرشاً

وهى من الروايات المؤثرة للكاتب البليغ (الفونس كار)

العبرات

ثمنها ١٥ قرشاً

هى مجموعة روايات مفجعة تشف عن مأساة هذه الحياة الدنيا

الانتقام

وهي من الروايات المؤثرة ثمنها قرش ونصف صاغاً

فى سبيل التاج

ثمنها ١٠ قروش

هى ملخص رواية تمثيلية لفرانسوا كوبه
الشاعر الفرنسى الشهير

مؤلفات أخرى شهيرة

المساواة

للآنسة مى ـ ثمنه ١٠ قروش

فى هذا الكتاب ترى مىّ المفكرة وقد تشعبت الموضوع فاستردت إلى بحث الاشتراكية والفوضوية والارستقراطية وما يتعلق بهذه الآراء لها أو عليها فأفاضت فى جميعها وأبانت حقائقها .

ديوان حافظ

لمحمد بك حافظ ابراهيم ـ ٣ أجزاء ثمنه ٢٠ قرشاً

يتعب فى قرض قريضه تعب النحات الماهر فى استخراج

تمثال جميل من حجر ، يؤثر الجزالة على الرقة وله فيها آيات ، وعلى الجملة فهو أحد الشعراء الثلاثة بمصر

ذكرى أبي العلاء

للدكتور طه حسين ـ ثمنه ١٢ قرشاً

كتاب انتقادى فلسفى على النمط الحديث رمى فيه المؤلف إلى درس أبى العلاء المعرى الفيلسوف العربى الشهير درساً مدققاً على الأسلوب النقدى المصرى

أمين الريحاني

ناشر فلسفة الشرق فى بلاد الغرب

ثمنه ٨ قروش

ويشتمل على مختارات من منثوره ومنظومه وطرف من بليغ حكمه وفسيح خطبه وما قيل فى حفلات تكريمه .

ما وراء البحار

أو النبوغ العربى فى العالم الجديد ـ ثمنه ٦ قروش

وفيه نخبة مقالات لنوابغ الكتاب فى العالم الجديد أمثاله جبران والريحاني وغيرهما

ابنة الرجل المجهول

رواية شيقة ممتعة من تأليف الكاتب الفرنسي الذائع الصيت (بول دى فوا) وتعريب (أدوار زيدان) وقد نالت هذه الرواية نجاحاً باهراً فى فرنسا وترجمت إلى معظم اللغات الحية وذلك لما تضمنته من حوادث غريبة لا تقع تحت حصر ، ولما تحمله بين طياتها من مغزى عميق لا يدرك إلا بعد الانتهاء من مطالعتها . وهى تريك إلى أى حد تصل النذالة برجل إذا ما تعلق بامرأة دينها الجشع وشرفها المال وطبيعتها الضغينة . وهى مزينة بالصور الكثيرة ومطبوعة طبعاً متقناً على ورق جيد ومقسمة إلى أربعين فصلاً .

ثمنها ٥ قروش

كلمات الفلاسفة

جمع وتعريب بباوي غالى

ثمنه ٣ قروش

ويشتمل على آراء الفلاسفة العظام وحقائقهم الخالدة التى أناروا بها العقول